بيت الدعوة

دراسة إجتماعية
من واقع التحرك الإسلامى

رفاعى سرور

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

رقم الإيداع : ٩٩/٢٩٧٦



هادف للنشر والتوزيع

٢٣ ش عبد العظيم البكرى - ترعة الهوارى - المطرية
ت : ٢٦٥٥٤٦٤٨ محمول : ٠١٠٥٣٨٥٥٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

من أهم الحقائق في صراعنا مع الجاهلية.. أنه صراع اجتماعي.. قائم بين واقع إسلامي.. وواقع جاهلي.

وهذه الحقيقة تحتم أن يدخل المسلمون بتلك الصفة في كل مراحل الصراع .. من لحظة الاستضعاف .. إلى فرصة التمكين .. ووقت الامتداد.

والدخول بالأسرة المسلمة في مجال الصراع - باعتبارها الواقع الاجتماعي للفرد الداعية - هو الوسيلة الأساسية لتحقيق الصفة الاجتماعية لواقع الدعوة في هذا الصراع.

وهذه الرسالة تتضمن التصور الحركي الذي تتكون به الأسرة، والحسابات الدقيقة التي تدخل بها - بعد تكوينها بهذا التصور - في واقع الدعوة.

ومن هنا، لم تكن هذه الرسالة دراسة اجتماعية أخلاقية عامة، بل دراسة حركية محددة، تبدأ بتقييم واقعي للفوضى الجنسية، باعتبارها نقطة تحول المجتمعات من الإسلام إلى الجاهلية، وباعتبارها العقبة الأساسية لعودة هذه المجتمعات الجاهلية إلى الإسلام.

والخروج من خلال هذا التقييم بضرورة ارتباط الحركة الإسلامية بمبدأ العفاف، وضرورة تكوين البيت لتحقيق هذا الارتباط، وبحث آثار هذا التكوين في الفكر والحركة، ثم عرض إمكانية وأسباب حماية البيت بعد تأكيد قيمته في واقع الدعوة، وكذلك حماية الدعاة من البيت؛ لتفادي خطر الرضا به دون الجهاد في سبيل الله.

وبذلك تدخل الأسرة في مجال الصراع، ويأخذ البيت وضعه في اتجاه الحركة، وتدخل معها المشاعر والغرائز في طاقة التحرك، وتنضم فيها الزوجة إلى دوافع العمل، وتتحول بها الذرية إلى إمكانية امتداد بشري للدعوة ؛ فيتحقق التجرد والتحرر والانطلاق الحركي، مع الارتباط الأسري والالتزام الاجتماعي والاحتياج المعيشي.

كما تنشأ في بيت الدعوة الحدود الفاصلة بين الصواب والخطأ .. بمقياس الدعوة .. في حياة الدعاة ..

مثل الحد بين زينة الله التي أخرج لعباده، والترف المحظور ..

وبين السكن إلى الزوجة، والركون إليها ..

وبين السعي المشروع للرزق، والانشغال المنهي عنه بالمال ..

وبين الحب الفطري للذرية، والافتتان بها.

كما يتحدد في بيت الدعوة .. الحد بين ممارسة الدعوة كهواية لا تتعدى حدود الميول الشخصية، وبين أن تكون الدعوة رسالة، لها حياة الدعاة واستشهادهم.

وسنرى في هذه الرسالة حياة الكفاح منبعاً للحب لا يجف بين الزوجين ..

فالحياة في بيت الدعوة:

إما لحظة وداع وأمل ..

أو لحظة حنين وشوق ..

أو لحظة لقاء وفرحة ..

فهي حياة طيبة .. وعيشة راضية .. وعمر مبارك . . ووقت مليء.

وفى نهاية الرسالة ندعو أنفسنا إلى زيارة بيت من بيوت الدعوة في عهد النبي ﷺ .. لنعيش هذه الأفكار وتلك المعاني .. واقعا محققاً .. وحقائق واقعة.

لتعلم كل صاحبة بيت للدعوة بتلك الزيارة ..

أنها واقفة بالتزامها على خط الدفاع الأول عن الدعوة ..

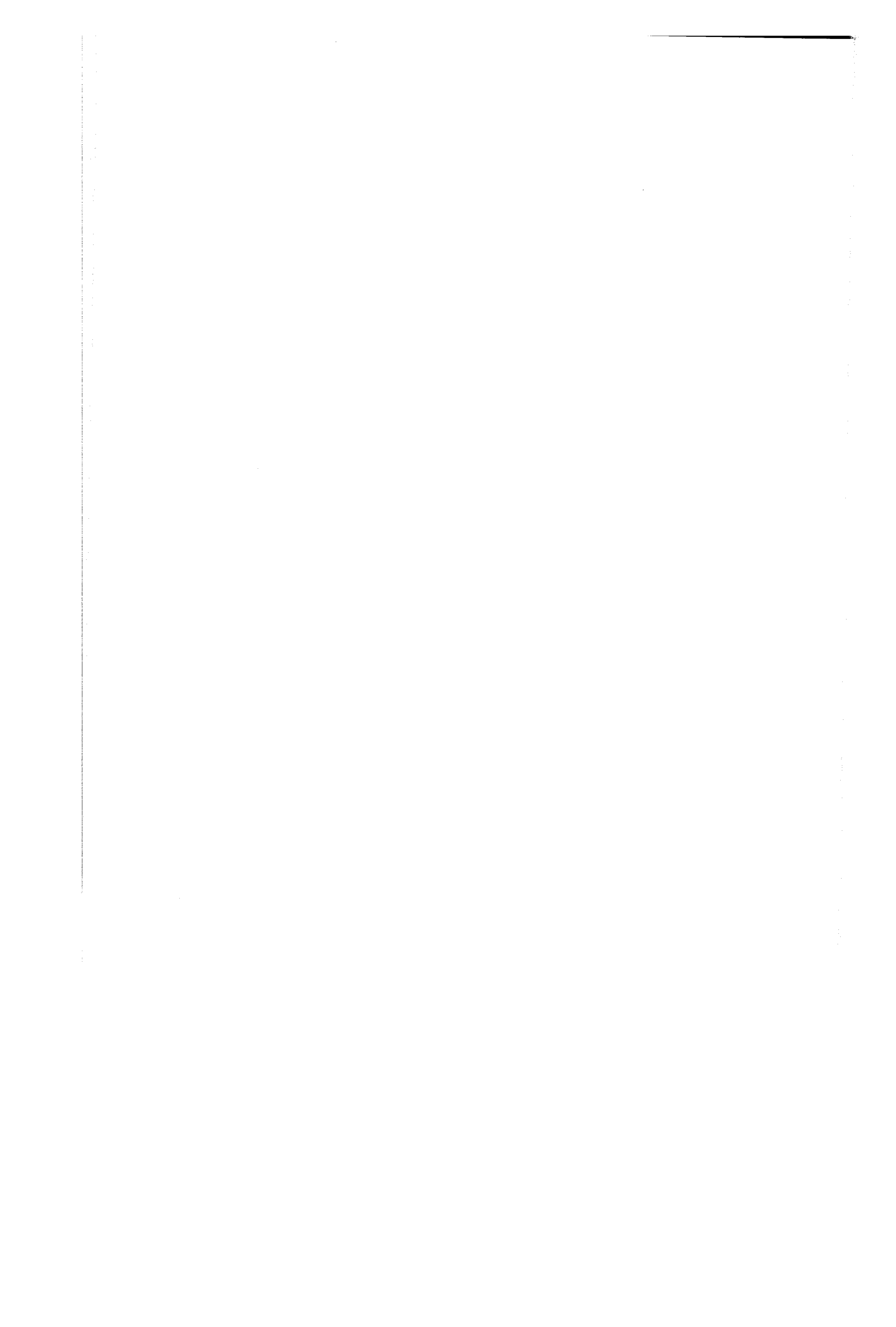
وأن موقفها يمثل نقطة الارتكاز في دائرة الامتداد ..

وأن نسيج ثيابها الشرعي هو نسيج الراية الإسلامية في هذا الصراع.

وهو بيت (الرميصاء) .. نموذجاً حقيقياً لبيت الدعوة ..

الذي نسأل الله أن يكون في واقعنا مجتمعاً كاملاً وحياة دائمة.

رفاعي سرور



البداية

نريد في البداية أن نعطي تقييماً حركيا لواقع الفوضى الجنسية، ذلك أن هذا التقييم هو أول ضرورات التغيير، لأن مجرد التعريف النظري لتلك الفوضى، والدعوة الكلامية في محاربتها، لا تكفى للقضاء عليها، أو تحقيق أدنى تأثير فيها، طالما أن الدعوة الإسلامية تفتقد المخطط العملي بإمكانياته اللازمة لإنهاء هذا الواقع.

وهناك حقيقة تفاجئنا من خلال هذا التقييم، وهي أن جاهلية الجنس كانت نقطة تحول المجتمعات من الإسلام إلى الجاهلية، ونجد ذلك في قول الرسول ﷺ : (اتقوا الدنيا .. واتقوا النساء ؛ فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت في النساء) [1].

والفكرة التي في الحديث: أن فتنة النساء كانت الفتنة الأولى في مجتمع بنى إسرائيل، ومعنى الفتنة الأولى، أنها كانت بداية الانحراف ونقطة التحول ؛ ولذلك فإن فتنة النساء تمثل عند إبليس -وهو الآمر بالفحشاء ومنشئ الفوضى وصاحب الجاهلية- الهدف الأول والأساسي الذي يسعى إلى تحقيقه في واقع الناس، كما يدل على ذلك الحديث الذي رواه النبي ﷺ: (إن إبليس يضع عرشه على المَاء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: «فعلت كذا» ، فيقول: «ما صنعت شيئاً» ، ثم يجيء أحدهم فيقول: «ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته»؛ فيدنيه منه، ويقول: «نعم أنت») [2].

---

(١) أخرجه مسلم في (الرقاق) (١٧/٥٥) من حديث أبي سعيد الخدري وهو مما انفرد به دون البخاري.
(٢) أخرجه مسلم - أيضاً - (صفات المنافقين) (١٧/١٥٧) من حديث أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه.

وهذا هو العنصر الأول من عناصر الخطر في الفوضى الجنسية، يتبعه عنصر السرعة في انتشار تلك الفوضى، والذي يتحقق بالإصرار على الانحراف في نفس المنحرف، بقوة تتعدى غريزة حب الحياة وكراهية الموت في النفس البشرية.

وهذا موقف يوضح لنا كيف تكون قوة الشهوة والإصرار على الانحراف، وذلك في قصة هجرة سيدنا إبراهيم إلى مصر، عندما كانت معه زوجته سارة، وكان في مصر ملك يأخذ كل امرأة جميلة غصباً، علم بقدوم سارة فطلبها، فلما جاءت أمامه دعت الله أن ينجيها منه فخسف الله به الأرض، ولكنه بعد ذلك الخسف يحاول مرة أخرى !، فيخسف الله به الأرض، فيحاول مرة ثالثة (١).

ولعل الإصرار يكون واضحاً من خلال المحاولة ثلاث مرات على الرغم من الخسف.

وهذا الموقف وإن لم يتكرر بهذه الصورة، لكنه يوضح عنصر الإصرار على الانحراف بصورة مباشرة وواضحة، وهذه هي طبيعة الانحراف في أي موقف.

والذي يحقق سرعة انتشار الانحراف بعد قوة الشهوة هو ضعف الغيرة في نفس المنحرف؛ ولذلك فإن النبي ﷺ يربط بين الاستقامة والغيرة ربطاً مباشراً، إذ يأتيه شاب ويقول له: يا رسول الله ! أريد أن أزني، فيقول له: أترضاه لأمك ؟، فيقول: لا، فيقول له ﷺ: (وكذلك الناس لا يرضونه لأمهاتهم) (٢).

وبضعف الغيرة .. تكون السلبية في مواجهة الانحراف، والتي تتحول بالإنسان السلبي إلى موقف المنحرف، ولذلك تحوَّل موقف امرأة العزيز حينما راودت يوسف عن نفسه - إلى موقف عام للنسوة بمجرد أن أرسلت إليهن وأعلنت رغبتها في يوسف عليهن، فعذرنها، فاعتبر يوسف هذا الموقف دعوة منهن جميعاً ..

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ (يوسف:٣٣)

وهذا معناه أن السلبية في مواجهة الانحراف تعتبر بذاتها دعوة إلى الانحراف.

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٦/٣٨٨) من حديث ابن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) قال الهيثمي (١/١٢٩): رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح.

وبقوة الشهوة وضعف الغيرة تتحقق نهائية معدل انتشار الانحراف الجنسي، التي تتم عندما لا يكون في المجتمع أي قيمة أخلاقية، مثلما كان لوط يبحث في قومه عن رجل رشيد فقال: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ (هود: ٧٨) .. ولم يجد.

ونهائية معدل الانتشار تتحقق بطبيعة المجتمع المنحرف ذاته مع طبيعة الانحراف؛ لأن المجتمع المنحرف لا يقبل -بطبيعته- وجود أي قيمة أخلاقية فيه؛ فيكون الرفض الجاهلي للأخلاق بعدة احتمالات:

الأول: إما أن يُخرج المجتمع أصحاب تلك القيمة منه، مثلما حاول قوم لوط عندما قالوا: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (الأعراف : ٨٢) .

الثاني: وإما أن ينحرفوا بأصحاب تلك القيمة مثلما حاول بنو إسرائيل مع العابد، كما جاء في حديث جريج عن أبى هريرة قال:(لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وكان في بنو إسرائيل رجل يقال له جريج كان يصلى فجاءته أمه فدعته فقال: أجيبها أو أصلى ؟، فقالت: اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات، وكان جريج في صومعته، فتعرضت له امرأة وكلمته فأبى؛ فأتت راعياً، فأمكنته من نفسها فولدت غلاماً، فقالت من جريج فأتوه فكسروا صومعته وأنزلوه وسبوه، فتوضأ وصلى، ثم أتى الغلام فقال : من أبوك يا غلام ؟، قال: الراعي. قالوا: نبني صومعتك من ذهب، قال: لا، من طين.

وكانت امرأة ترضع ابناً لها ببني إسرائيل، فمر رجل راكب ذو شارة، فقالت: اللهم اجعل ابني مثله؛ فترك ثديها، وأقبل على الراكب، فقال: اللهم لا تجعلني مثله !، ثم أقبل على ثديها يمصه.

قال أبو هريرة: كأني أنظر إلى النبي ﷺ يمص إصبعه، ثم مر بأمَةٍ (١) يضربونها، ويقولون: يا سارقة.. يا زانية، فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه ؛ فترك ثديها فقال: اللهم اجعلني مثلها !،

---

(١) أي جارية.

فقالت: لم ذاك؟، فقال: الراكب جبار من الجبابرة، وهذه الأمة يقولون سرقت .. زنيت، وهي لم تفعل) [١].

ولقد وضح من هذا الحديث كيف أن المرأة البغي حاولت إغراء العابد، فلما فشلت، لم تستطع مواجهة القوم بهذا الفشل، فأتت لهم بغلام من رجل آخر، ورفض المرأة المنحرفة للفشل في إغراء أي إنسان تريد الانحراف به، هو أخطر ما في طبيعة المرأة عندما تنحرف، ويساوى هذا الخطر في طبيعة المرأة عندما تنحرف، رغبتها في أن تقع جميع النساء فيما وقعت فيه.

ودليل ذلك قول عثمان بن عفان: (ودت الزانية لو زنى النساء كلهن) [٢].

الثالث: وإما أن يفسر المجتمع الجاهلي القيمة الأخلاقية تفسيراً ينفي حقيقتها، مثلما فعل بنو إسرائيل مع موسى لما رأوه يغتسل بعيداً عنهم ؛ فقالوا: إن به عيباً، ويقول الله -عز وجل- في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ (الأحزاب: ٦٩)، وبذلك نرى المجتمع المنحرف يدفع الإنسان المستقيم إلى الانحراف، أو يدفع به خارج واقعة، أو يفسر استقامته تفسيراً ينفى معناها؛ حتى يكون المجتمع خالصاً لانحرافه.

وخطر الانحراف الجنسي بمعدل انتشاره السريع والنهائي يأتي باعتبار أن هذا الانحراف الجنسي هو الخطر الأكبر على الرجال، والرجال هم طاقة الدعوة؛ ولذلك يقول الرسول ﷺ: (ما تركت فتنة أضر على رجال أمتي من نسائها) [٣]. وكذلك يبين الرسول ﷺ أن الزنا جريمة الكيان الإنساني كله، فيقول ﷺ: (العين تزنى وزناها النظر، واليد تزنى وزناها اللمس، والقدم تزنى وزناها المشي، والنفس تتمنى وتشتهى، والفرج يصدق ذلك كله أو يكذبه) [٤].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في البر والصلة (١٠٦ .. ١٠٧ / ١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) رواه الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوى.
(٣) أخرجه مسلم في (الرقاق) (١٧/٥٤) من حديث أسامة بن زيد وسعيد بن زيد مرفوعاً.
(٤) البخاري في (الإستئذان)، (١١/٢٦)، مسلم (١٦/٢٠٥) من حديث ابن عباس.

وبمعنى هذا الحديث يتأكد لنا أن الانحراف الجنسي يستهلك ويهدم الشخصية الإنسانية، ومن هنا كان حد الزنا هو الرجم بمعناه المباشر؛ وهو إنهاء وجود هذا الكيان المنحرف ..

وخطر الجنس باق - أيضاً - باعتبار أنه يتحول إلى طاقة للتحرك بأي قضية باطلة يعتنقها الإنسان المنحرف ..

ومن هنا كانت الغريزة الجنسية هي الطاقة الأساسية للحركة الجاهلية ...

والمثال الذي يؤكد هذه الحقيقة: هو دفع النساء المشركات للرجال المشركين لقتال المسلمين في غزوة أحد بقولهن:

إن تُقبلوا نعانق ... ونفرش النمارق

أو تُدبروا نفارق ... فراق غير وامق

ولنا أن نعلم كذلك معنى الضرر الذي يقصده الرسول ﷺ إذا قمنا بعملية قياس للضغط الجنسي على الإنسان، ولكي نقيس هذا الضغط، نختار العهد الإسلامي الأول، باعتباره الوضع الاجتماعي القياسي لأي وضع اجتماعي آخر ؛ وذلك حتى يكون تقديرنا لهذا الضغط مقياساً لتقديرنا للضغط الواقع على الإنسان في أي وقت وأي مجتمع، فهذا رجل يقف مع رسول الله ﷺ في الحج فتأتى امرأة لتسأل الرسول ﷺ فيدفع الرسول ﷺ وجه الرجل بيده عنها(١).

ورجل آخر يأتي إلى صلاة الصبح فيقابل امرأة في الطريق فيقبِّلها (٢)..

فالأول كان في الحج، والثاني كان آتياً إلى صلاة الصبح .. !

وهذا أبو هريرة يعيش رفيقاً للرسول ﷺ على ملء بطنه، فيشكو إلى رسول الله ﷺ معاناته من الغريزة، ويطلب منه أن يجيز له الاختصاء (٣) ..

وتقول الصحابة: لو أذن له لفعلنا .. ! (٤)

(١) أخرجه البخاري (١١/٨) ومسلم (٩/٩٧)، والذي كان ينظر إلى وجه المرأة هو: الفضل بن العباس.
(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٨/٣٥٥) من حديث ابن مسعود .
(٣) حديث أبي هريرة أخرجه البخاري في النكاح (٩/١١٧) من حديث أبي سلمة عنه رضي الله عنه.
(٤) القائل من الصحابة هو سعد بن أبي وقاص وابن مسعود وغيرهما انظر البخاري المصدر السابق.

ولن يعيش أحد مثلما كان يعيش أبو هريرة والصحابة في عهد الرسول ﷺ ..

وعلى الرغم من ذلك كانت المعاناة ..

ومن الطبيعي أن يلازم خطر الفوضى الجنسية خطر يوازيه ..

وهو خطر الحب في الواقع الجاهلي باعتباره حقيقة إنسانية مثل حقيقة الجنس، والتقييم الحركي لحقيقة الحب يتحدد في بحث أثر الحب في علاقة الإنسان بالدعوة، وقد أقر النبي ﷺ بالحب كحقيقة واقعة، عندما رأى عبداً يجرى وراء جارية وهو يبكي؛ فقال لأبي بكر: (انظر يا أبا بكر!، ودعا الجارية، فجاءت فقال لها: أتتزوجيه؟ قالت: يا رسول الله أتأمر أم تشفع؟، قال: بل أشفع، قالت: إذن لا أتزوجه)(1). وقد كان هذا الحديث تقريراً من النبي ﷺ لواقع الحب من خلال تعجبه من حال العبد دون إنكار عليه، وطلبه من الجارية أن تتزوجه، وأيضاً من خلال تقريره رفض الجارية للزواج من العبد، ومراعاة مشاعرها على الرغم من رد شفاعة النبي في ذلك.

واعترافنا بالحب كحقيقة إنسانية واقعة؛ إنما هو اعتراف مجرد من أي مدلول له في الواقع الجاهلي، وهذا التحفظ في غاية الأهمية، إذ إن الحب في الواقع الجاهلي ما هو إلا ظاهرة من ظواهر الانحراف الجاهلي، وذلك لأن الحب الجاهلي هو إثبات للذات الإنسانية من واقع الفراغ..

لأن الحب بأهم معانيه هو: إثبات للذات الإنسانية ..

والجاهلية بأبرز صفاتها هي: واقع فراغ فكري ووجداني..

وخطورة إثبات الذات من واقع الفراغ على علاقة الإنسان بالدعوة؛ تأتى باعتبارها استهلاكاً للخصائص الطبيعية في الإنسان، والتي تحقق فيه إمكانيات تحمل تكاليف الرسالة، وهي إمكانيات قائمة في كل إنسان، حيث أن الله - سبحانه وتعالى - خلق الإنسان مهيأ بتلك الخصائص لأن يكون صاحب رسالة.

(1) أخرجه البخاري في النكاح (٩/٤٠٨) من حديث ابن عباس وهو عند أهل السنن أيضاً.

ودلائل هذه الإمكانيات هي:

القدرة على الحياة بقضية الرسالة ..

وتصور الوجود من خلال تلك القضية ..

والقدرة على مواجهة أي واقع مخالف لهذا التصور ..

وعندما يحب الإنسان الجاهلي من الفراغ، فإنه بهذا الحب ينطلق نحو من أحبها .. بخصائص الرسالة الكامنة فيه؛ لأنه يعيش بلا قضية.

فتتحول تلك التي أحبها إلى قضيته التي يحيا بها، ويتصور الحياة من خلالها ويسعى إلى الارتباط بها محطماً في سبيل ذلك أي عقبة.

وآثار الحب في الواقع الجاهلي هي الدليل على هذه الظاهرة، فعندما يمارس الجاهلي حباً فإنه يحب إلى حد العبودية، وعندما يفشل في حبه:

- فإما أن يصاب بالجنون بعد طغيان إحساسه بمن أحبها على عقله وواقعة ..
- أو يصاب بالانطواء كصورة من صور الكفر بمبدأ (العلاقة) بعد فشله في علاقته بمن أحبها ..
- أو ينتحر كصورة من صور الرفض لحياته التي كان لا يتصورها إلا من خلال علاقته التي فشلت..

وهذه هي الآثار الخطيرة للحب في الواقع الجاهلي، وبذلك يكون الخطر الحقيقي على الإنسان عندما يمارس حباً جاهلياً: هو عجزه تماما عن أن يكون صاحب رسالة.

واعترافنا بالحب كحقيقة إنسانية واقعة، وتجريد هذا الاعتراف من أي مدلول له في الواقع الجاهلي يقتضي أن نناقش حالة خطيرة في حياة الدعاة، وهي دخول الإنسان في واقع الدعوة وهو يحمل في قلبه حباً قد بدأه في الجاهلية، ولم يتمكن من التخلص منه بعد دخوله واقع الدعوة.

وهذه الحالة لها ثلاث نتائج مؤكدة:

- إما أن تكون هذه المشاعر أساساً للدعوة من الطرف المسلم في علاقة إلى الطرف الآخر للالتزام ..
- وإما أن تكون هذه المشاعر فتنة للطرف المسلم في العلاقة عن دعوته ودينه ..
- وإما أن تنتهي هذه العلاقة وهي النتيجة الثالثة ..

وهذا يعني أن التفكير في إنهاء العلاقة إنما يكون بعد محاولة تحقيق النتيجة الأولى وهي «الدعوة»، وحذراً من الوقوع في النتيجة الثانية وهي «الفتنة».

ونتفق ابتداءً على أن الإيمان الصحيح يحمي صاحبه من الفتنة، ولكن يجب أن نتفق كذلك على أن الأمر يتطلب معالجة وجدانية مباشرة، ذلك أن الإيمان الصحيح يحقق غلبة الالتزام من حيث السلوك، ولكن المشاعر تظل باقية، والدليل على ذلك هو حادثة مرثد الغنوي.

روى الترمذي قال: (كان رجل يقال له مرثد، وكان رجلاً يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم إلى المدينة، وكانت امرأة بغي بمكة يقال لها عناق، وكانت صديقة له، وإنه واعد رجلاً من أسارى مكة يحمله، قال: فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة، قال فجاءت عناق فأبصرت سواد ظل تحت الحائط فلما انتهت إلي عرفتني، فقالت: مرثد؟، فقلت: مرثد!، فقالت: مرحباً وأهلاً!، هلم فبت عندنا الليلة، قال: فقلت يا عناق حرم الله الزنا، فقالت: يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم، قال: فتبعني ثمانية، ودخلت الحديقة، فانتهيت إلى غار أو كهف فدخلت فيه، فجاءوا حتى قاموا على رأسي فبالوا، فظل بولهم على رأسي، فأعماهم الله عني، قال: ثم رجعوا فرجعت إلى صاحبي فحملته، وكان رجلاً ثقيلاً حتى انتهيت إلى الأذخر ففككت عنه أحبله، فجعلت أحمله ويعينني، حتى أتيت به المدينة، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله! أنكح عناقاً؟ .. أنكح عناقاً؟ .. مرتين، فأمسك رسول الله ﷺ فلم يرد عليّ شيئاً، حتى نزلت:

﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور:٣) ، فقال رسول الله ﷺ:

(يا مرثد !، الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، فلا تنكحها) (١).

وواضح من الحادثة كيف أن مرثداً أراد الزواج من المرأة على الرغم من كفرها، وبغائها ومحاولتها جمع الناس لقتله، وكيف ألح في طلبه الزواج منها، وفي هذا دليل على أنه كان متعلقاً بها وجدانياً، ولولا ذلك لما كان هذا موقفه.

ومن هنا تنشأ قيمة المعالجة لمثل هذه الحالة..

وأساس المعالجة الوجدانية المباشرة: هو مواجهة العناصر التي تنشأ من خلالها مشاعر الحب وهي(٢):

* الانبهار بشخصية المحبوب، باعتبار أن الانبهار ينشئ الحب، والحب يضفي على المحبوب أبعاد الكمال الإنساني، ومن هنا صار أمراً معتاداً أن يتخيل المحب في محبوبه صفات الجمال والذكاء والكرم والقوة .. الخ .

– ومواجهة هذا العنصر هي: إظهار العيوب والنقائص وتثبيتها في الذهن. يقول ابن القيم في هذا العنصر: (فليتذكر قبائح المحبوب وما يدعوه إلى النفرة منه، فإنه إن طلبها وتأملها، وجدها أضعاف محاسنه التي تدعوه إلى حبه) .

* الرجاء في قيام العلاقة، فإذا حدث الرجاء بدأت المشاعر، وتقوى هذه المشاعر كلما قوي الرجاء.

– ومواجهة هذا العنصر هي: تيئيس النفس من إمكانية استمرار تلك العلاقة باعتبار الالتزام الشرعي.

* الأسرار باعتبارها وعاء المشاعر، فعندما ينشأ سر بين اثنين، ينشأ اختصاص كل طرف للآخر بسر، ومع هذا الاختصاص .. تنشأ المشاعر.

– ومواجهة هذا العنصر هي: كشف الأسرار التي كانت بين الاثنين أمام أطراف أخرى، وبذلك يفقد الاختصاص الذي بينهما.

(١) أخرجه النسائي في (النكاح) وأبو داود (٦/٤٨)، والترمذي رقم (٣١٧٧) وسنده حسن.
(٢) يمكن الاستفادة في هذا الشأن، بكتاب الطب النبوي للإمام ابن القيم في علاج العشق.

* افتراض تحقق السعادة في الارتباط بالمحبوب، وهو افتراض طبيعي ناشئ عن الحب.

- ومواجهة هذا العنصر هي: تذكُّر الأضرار التي ستنشأ عن هذا الارتباط، مثل القلق على العِرض والشك في السلوك باعتبار عدم الالتزام، وتذكر عاقبة القلق والشك من خَبل في العقل وألم في النفس، وحرمان من الراحة، وافتراض تحقق السعادة في الارتباط بالمحبوب، يعني الشعور باستحالة تحقق السعادة مع غيره، ومواجهة ذلك إنما تكون بالارتباط السريع بأخت مسلمة، ويكون من الأولى أن تكون الأخت على قدر من الشخصية والجمال، يحقق رجحان كفتها في نظره ؛ لأنه بمجرد تفكيره في الارتباط بها سينشئ في نفسه مقارنة بينها وبين من كان يحبها، ومع هذه الحالة ينشأ واجب الاستعانة بالله لتحقيق النجاة، والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، وهذا هو التحديد الحركي لأثر الحب في علاقة الإنسان - في الواقع الجاهلي - بالدعوة الإسلامية.

وبعد هذا التقييم الحركي للفوضى الجنسية نخرج بحقيقة مهمة وهي:

ضرورة ارتباط الحركة الإسلامية بمبدأ العفاف منذ لحظة التكوين، وحتى قيام الواقع الحركي للدعوة الإسلامية.

وكما فهمنا من التقييم، فإن أي واقع اجتماعي تتسلل إليه الفوضى الجنسية لن يكون له بقاء صحيح..

فلابد من قيام واقع الدعوة الاجتماعي، وهو يحمل في طبيعته وتكوينه، أسباب حمايته من الانحراف، وهذا هو معنى قيام الحركة بمبدأ العفاف، وهذا هو الذي يضمن أن يكون نمو المجتمع المسلم بعد ذلك مرتبطاً بهذا المبدأ، وهاهي ذي التجربة الإسلامية الأولى تحقق قيام الدعوة بمبدأ العفاف ..

حيث كان العفاف هو أول ثلاثة أشياء أمر بها النبي ﷺ في دعوته إلى الناس، كما قال أبو سفيان: (أمرنا بالصلاة والصدق والعفاف) (١) ..

---

(١) قول أبي سفيان أخرجه البخاري في (بدء الوحي) (١/٣١) وهو في مسند أحمد (١/٢٦٢) من حديث ابن عباس.

وكانت دعوته إلى العفاف هذه دليلاً على صدق النبوة عند هرقل ؛ إذ قال لأبي سفيان رداً على قوله هذا: (لو كان كما تقول حقاً فسيملك موضع قدمّي هاتين)..

وكان الأمر بالعفاف في نص البيعة على الإسلام: (بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا)(١). وكان أول أعمال النبي ﷺ في المدينة بعد بناء المسجد هو إقامة حد الزنا على يهوديين بمقتضى حكم التوراة. وكان أول أوامر النبي ﷺ في مكة بعد فتحها هو قوله: (لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان)(٢).

وهذه حجة الوداع اللقاء الأخير العام بين النبي ﷺ وأمته يقوم فيهم ويوصى وصاياه التي ستعيش معهم، ويعيشون بها من بعده إلى قيام الساعة، يقول: (ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهم عوان عندكم، ليس تملكون منهم شيئاً غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً، ألا إن لكم على نسائكم حقا، فأما حقكم على نسائكم: فلا يوطئن فرشكم من تكرهون (٣)، ولا يؤذن في بيوتكم من تكرهون، ألا وحقهن عليكم: أن تحسنوا (٤) إليهن في كسوتهن وطعامهن).

وواضح من الوصية الأخيرة، أن جوهرها هو قيام علاقة طيبة بين رجال الأمة ونسائها؛ بما يضمن بقاء ارتباط هذه الأمة بالتكوين الأسري الصحيح وتحقيق مبدأ العفاف.

ويتولى عمر بن الخطاب إمارة المؤمنين فيقول في أول خطبة له:

(يا أيها الناس، قمت فيكم كمقام رسول الله ﷺ فينا .. ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان .. عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة ..

(١) متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت، أخرجه البخاري في (١/٦٤) ومسلم (١١/٢٢٢).
(٢) البخاري (٣/٤٨٣) ومسلم (٩/١١٥).
(٣) أخرجه مسلم (١٨٣- ٨/١٨٤) والترمذي (١١٦٣)، وابن ماجه (١٨٥) والنسائي (٢٧٨).
(٤) ودائماً تأتي صيغة الحض علي إطعام المرأة وكسوتها بالأسلوب الذي يتفق مع طبيعة العلاقة الزوجية مثل قوله ﷺ (حتى اللقمة التي تضعها في فم امرأتك). فالأمر ليس مجرد الإطعام ولكنه الحنان والرحمة في الإطعام.

من سرته حسنته وساءته سيئته، فذلك المؤمن) [1] ..

ثم يقول عمر: (لقد مضى رسول الله إلى سبيله .. فأتموا الحج والعمرة كما أمركم الله ورسوله، واحفظوا فروج النساء) [2] ..

ونقف قليلاً أمام خطبة عمر باعتبار أساسي، وهو أن عمر رائد الامتداد في الدعوة الإسلامية[3].

ولهذا فإن عرض التصور عند عمر في مواجهة خطر الجنس، يعتبر مقياساً من مقاييس الارتباط بين امتداد الدعوة الإسلامية ومبدأ العفاف.

وخطبة عمر الأولى تؤكد قيمة هذا الارتباط من البداية، إذ تقول الكلمة الأولى فيها: (ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما).

فيحذر عمر من الفوضى في العلاقة بين الرجال والنساء، واستغلال الشيطان لتلك الفوضى قبل وصيته بالجماعة، وتحذيره من الفرقة، على الرغم من أن الجماعة هي الأمر الأول الذي يقوم به الإسلام، ولكن عمر كان يعلم ضرورة أن يسبق الوصية بالجماعة وصيته بالعفاف؛ إذ لا جماعة بغير هذا المبدأ.

ولقد كان أعداء الحركة الإسلامية يدركون قيمة ارتباط الدعوة بمبدأ العفاف، فكانوا في خط التضاد مع الحركة الإسلامية، يحاولون الانحراف بالحركة عن هذا المبدأ، ومن هنا كانت حادثة اليهودي الذي حاول أن يكشف ستر امرأة مسلمة [4]، فكان ذلك سبب إجلاء اليهود - يهود بنى قينقاع - من المدينة.

---

(١) صحيح، أخرجه أحمد (١/٠١٨) انظر الرسالة للشافعي تحقيق الشيخ شاكر رقم (١١٣١٥١) وأخرجه أيضاً الترمذي (٢١٦٥)، والحاكم (١/١١٤) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح، أخرجه احمد (١/١٧) وهو حديث مستقل غير الذي قبله، رواه من طريق أبي نضرة عن أبي سعيد.

(٣) بدليل أن رسول الله رأى رؤية، فيها أبا بكر ينزح من بئر وكان في نزحه ضعف ويغفر الله له، فأخذها عمر فصارت غربا، وهذه الرؤية ترمز إلى الامتداد والفتح الإسلامي الذي تم في إمارة عمر. أخرجه البخاري في التعبير (١٢/٤١٢) عن ابن عمر.

(٤) رواه ابن هشام (٢/٢٥) عن ابن اسحاق حدثني عاصم بن عمر بن قتادة مرسلاً . راجع البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٣-٤/٤) .

ولعل هذا الحادث بالذات هو الذي يكشف لنا خطورة الأمر؛ إذ أن السبب قد يبدو في ظاهره ليس مستوجباً جلاء اليهود، ولكن اليهود يعلمون ما وراء هذا الحدث، ورسول الله ﷺ يعلم ما يريده اليهود فيقرر إجلاءهم، وهي نتيجة قد نرى أنها أكبر من السبب، ولكن بالإدراك الحقيقي لقيمة العفاف في واقع الحركة ندرك أن النتيجة تناسب السبب، وأن جلاء اليهود كان ما يجب أن يكون تجاه هذا التصرف اليهودي.

ولكن القيمة الحقيقية في ارتباط الدعوة بالعفاف، ليست في مجرد البداية أو مرحلة التكوين؛ بل لابد أن يكون هذا الارتباط مستمراً مع مراحل النمو، كما هو واضح في خطبة الوداع من النبي ﷺ وخطبة الإمارة من عمر.

والارتباط المستمر بين الدعوة والعفاف له موضع أساسي .. هو البيت مكوناً بتصور الدعوة .. ومبنياً بمقتضياتها.

ومن هنا تبدأ المهمة الدقيقة الصعبة .. تكوين البيت بتصور الدعوة.

ولنبدأ المهمة من لحظتها الأولى ..

وهي ضرورة تحقيق التوافق التام بين واقع الأسرة والدعوة:

من خلال معالجة مفهوم التجرد ..

ومن خلال أسلوب ممارسة الدعوة وأسلوب تكوين البيت.

معنى التجرد

ونبدأ في تحقيق التوافق بمعالجة آثار الفهم الخاطئ عند البعض عن معنى (التجرد)، الذي يتحدد عندهم في ضرورة العيش للدعوة وحدها، دون تفكير في زوجة أو رغبة في ذرية، ولذا كان لابد ابتداءاً من تحديد وتصحيح مفهوم التجرد على أنه: امتلاك الشيء .. والقدرة على بذله .. والصبر عند فقده.

فعندما ابتلى الله أيوب بفقدان أهله وصبر، آتاه الله أهله ومثلهم معهم؛ لأن الصبر في البلاء قد تحقق وتحقق معه التجرد، ولا يضر بعد ذلك أن يكون لأيوب أهل، وحتى مثلهم معهم.

وإبراهيم عندما أمره الله بذبح ابنه إسماعيل استجاب لأمر ربه ..

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (الصافات ١٠٣-١٠٥)، وبدون أن يذبح إبراهيم ابنه حقق التجرد باستعداده للتضحية، وهذا هو المقصود، ولم يكن المقصود ذبح الابن، بدليل أنه بدون الذبح قال الله له: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾..

وعلى هذا فإن معنى التجرد هو: أن يكون للإنسان زوجة وذرية .. لكنه يستطيع التضحية بالحياة معهم .. إذا اقتضت ضرورة الدعوة ذلك.

ولقد قال الله تعالى في المرسلين: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ (الرعد: ٣٨).

وهذا موسى عليه السلام يتزوج في أخطر مراحل الدعوة، بعد أن فر من مصر خائفاً يترقب.

ولقد كانت حياة الرسول ﷺ تحقيقاً دائماً للانسجام والتوافق بين دعوته وبيته، وهذه هي حقيقة التجرد الواقعية، إذ يقول الرسول ﷺ: (حُبِّبَ إليَّ من دنياكم ثلاث: المسك والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة)[1]. فقد جمع الرسول ﷺ بين قرة العين في الصلاة، ومعناها قمة القرب من الله وبين حب الزوجة.

بل إن النبي ﷺ يبين أن أفضل مكان لصلاة المرأة هو مخدعها، فيقول:

(صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها، وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها).

كما حقق الرسول ﷺ ذلك الربط عملياً عندما كان يصلى على فراش عائشة، وهذا معناه أن المكان الذي يكون فيه الإنسان مع زوجته، من الممكن أن يكون - هو بذاته - مكان قرب الإنسان من الله دون تعارض، ولكن صلاة الرسول ﷺ في فراش عائشة لا تؤثر في رغبة النبي الشديدة في التعبد ..

وهاهي ذي عائشة تصف ذلك عندما سألها ابن عمر: أخبرينا بأعجب شئ رأيته من رسول الله ﷺ فبكت، وقالت: (كل أمره كان عجباً، أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي، ثم قال: ذريني أتعبد لربى، فقلت: والله إني لأحب قربك، وإني أحب أن تعبد لربك، فقام إلى القربة فتوضأ، ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلى، فبكى حتى بل لحيته، ثم سجد حتى بل الأرض)[2].

وكذلك يربط الرسول ﷺ بين مشاعر العبودية لله ومشاعر الأبوة والرحمة بالذرية في وقت واحد، فكان يسجد، فإذا ارتفع الحسين فوق ظهره ظل ساجداً حتى ينزل، وكان يصلى وهو يحمل ابنته زينب[3] على يده ..

(١) أخرجه أحمد (٣/٢٨) والنسائي (٧/٠٦١)، والحاكم (٢/١٦٠)، وأبو يعلى (٦/١٩٩)، والطبراني الصغير (١/٢٦٢) الفقرة الأخيرة، وغيرهم، وسنده صحيح - دون زيادة كلمة (ثلاث) -. راجع الفتاوى الحديثية للهيثمي (ص٢٧٧)، ولفظة (ثلاث) مفسرة للمعنى كما لا يخفى.

(٢) رواه ابن حبان.

(٣) أخرجه مسلم ٦/٠٣١) والبخاري في (سترة المصلي) من حديث أبي قتادة.

وبذلك تمتزج مشاعر العبودية لله مع مشاعر الرحمة والأبوة، كما كان ﷺ يوازي بين تعلم الرماية للحرب باعتبارها أهم أعمال الجهاد، وبين اللهو مع الأهل في كونهما من الحق، فقال رسول الله ﷺ: (كل شئ يلهو به ابن آدم فهو باطل إلا ثلاثاً: رميه عن قوسه ، وتأديبه فرسه وملاعبته أهله فإنهن من الحق) (١).

(١) صحيح الترمذي (١٦٣٧) والنسائي (٦/٢٢٢) وأبو داود (٧/١٨٩) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

الزواج والدعوة

وكما كان الانحراف الجنسي بداية حقيقية لتحول الأمة إلى الفساد ..
كان الاستمرار على هذا الانحراف سبباً مباشراً لهلاكها نهائياً ...

ولعل هذا هو المعنى المأخوذ من قول رسول الله ﷺ: (إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير). إذ إن الملاحظة الواضحة في الحديث هي تعليق الفتنة التي تعم الأرض والفساد الكبير بعدم صحة التزاوج في الأمة، وهو الأمر الذي يتحتم معه الانحراف الذي تكون به الفتنة والفساد الكبير.

وتعليق الفتنة والفساد الكبير بعدم صحة الزواج الواردة في الحديث محددة بمرحلة الاختيار.

ومرحلة الاختيار هي المرحلة التي تجتمع فيها كل المقاييس والتصورات والتقاليد والقيم الاجتماعية؛ لأنه بهذه الأشياء كلها يتم الاختيار، مما يجعل الخلل في الاختيار دليلاً مباشراً على الخلل في كل هذه الأبعاد.

هذا الخلل الذي لا تستقيم معه أمة، ولا تقوم لها قائمة.

وبعد الاختيار الصحيح في البداية، يبقى الزواج صحيحاً حتى النهاية بالتجرد من الحياة الدنيا والنجاة من ضغط النساء على الرجال في هذا الجانب.

وهناك سياقات قرآنية تتضمن هذا المعنى بصورة أساسية منها ما جاء في سورة الحجر، حيث ناقشت في أول السورة قضية إهلاك الكافرين:

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ، مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ (الحجر: ٤-٥).

ثم تناقش السورة مهلك قوم لوط -وهم علامة الشذوذ ومثل الانحراف- بصورة مفصلة، لتناقش السورة بعد ذلك ضمانات بقاء هذه الأمة المسلمة إلى قيام الساعة فكان هذا الفضل متمثلاً في سورة الفاتحة التي لم ينزل مثلها في التوراة والإنجيل والقرآن .

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إن في كتاب الله لسورة ما أنزل عليَّ مثلها، فسأله أُبَيّ عنها فقال: إني لأرجو أن لا تخرج من الباب حتى تعلمها، فجعلت أتباطأ ، فسأله أُبَيّ عنها فقال: كيف تقرأ إذا قمت في صلاتك ..؟

فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة والإنجيل والقرآن - أو قال الفرقان - مثلها ، إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (الحجر: ٨٧).

وكانت الضمانة الموازية للفاتحة ، هي تجرد الرسول ﷺ من النظر إلى الحياة الدنيا: ﴿لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الحجر: ٨٨).

أما في سورة طه فيجمع الله بين هلاك الأمم الكافرة والنهي عن مد العين إلى متاع الحياة الدنيا وتقرير أن العاقبة للتقوى في سياق واحد:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى﴾ (طه: ١٢٨) ، ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه: ١٣١).

وبتحقيق الزواج الصحيح تتحقق أكبر فاعلية لانتشار الأمة الصحيحة وبقائها. والدليل الأول على هذه الفاعلية هو قول الله - عز وجل -:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (الرعد: ٣٨).

ومن هذه الآية نشأ أخص الأبعاد القدرية لقضية الزواج ..

ذلك أن الآية تثبت لجميع المرسلين صفة التزاوج .. ومن هذه الصفة نشأت أمة الأنبياء .. وبأمة الأنبياء تحققت أقدار الله في البشرية كلها، حيث كان قدر كل أمة مرتبط بقدر نبيها.

ولذلك جاء بعد هذه الآية مباشرة: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد: ٣٩) فأصبحت حقيقة تزواج المرسلين - التي كانت بها الذرية التي نشأت بها أمة الأنبياء - هي الحقيقة الثابتة في اللوح المحفوظ - وهو أمٌّ الكتاب - التي يتحدد بها أقدار الأمم.

ولعل أخطر الأمثلة على ارتباط أقدار الأمم بالزواج بصورة تفصلية، هو أن تنشأ أكبر أمتين ارتباطاً بتلك القضية .. أمة بنى إسرائيل، وأمة الرسول ﷺ.

فقد بدأ قدر أمة الرسول ﷺ (بالاستجابة لغيرة سارة من هاجر زوجة إبراهيم الخليل)، ثم الاستجابة لدعاء إبراهيم وإسماعيل بأن يبعث في أهل هذا المكان رسولاً منهم، ولذلك يقول النبي ﷺ: (أنا دعوة مستجابة من دعوات إبراهيم)، وذلك عند بناء البيت الحرام الذي تحدد مكانه لإبراهيم، وأسكن فيه إبراهيم زوجته هاجر، حيث ذهب بها إبراهيم إلى المكان عندما طلبت منه سارة هذا بعد غيرتها من هاجر التي رُزقت بإسماعيل. يقول الله - عز وجل -: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٩).

وأيضاً نجد أن زواج موسى وعلاقته بالدعوة ، يتضح جلياً من الخطوات التي حددتها الآية التي وصفت حال موسى، ابتداءاً من هروبه من مصر وهو خائف يترقب، ووروده ماء مدين ليقف موقف المروءة والنخوة والعفة والأمانة، فهو يدفع الظلم عندما يجد امرأتين لا تستطيعان السقاية بسبب الرجال، ثم يدعو ربه أن ينزل عليه من الخير، لتكون الاستجابة هي دعوة الرجل الصالح

ليجزيه أجر السقاية، تلك الاستجابة التي يبدو فيها جلياً أهمية العفة والأمانة وصيانة النظر عن المحرم، فيأمر المرأة أن تسير خلفه، لا أمامه ولا بجواره، ثم تطرح فكرة الزواج، ويقضي موسى أحسن الأجلين المتفق عليهما.

ويأتي الزواج ليكون بداية لمرحلة إعداد موسى للقاء الله عز وجل، مرحلة تحل فيها السكينة محل الخوف والجزع، ويكون فيها الخير، بخدمته للرجل الصالح، مرحلة تتجلى فيها أهمية الزواج، وارتباطه بالدعوة ارتباطاً متجانساً: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ، وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ، فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ، قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ، قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ، فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ، فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (القصص: ٢١-٣٠).

فإذا به يدخل الوادي المقدس طوى؛ ليكون كلام الله معه، فيوحي إليه، ويبعثه إلى بني إسرائيل؛ لتنشأ أكبر أمة بعد أمة النبي - عليه الصلاة والسلام. وتكون الأولى من خلال رغبة سارة في رحيل هاجر بعد غيرتها، وتكون الثانية من خلال زواج موسى من ابنة الرجل الصالح بعد الخوف

والترقب. ثم يكون اللقاء مع الله من خلال بحثه لأهله عن جذوة من النار لعلهم يصطلون.

وإذا كان المتفق عليه قدراً عظمة الاستجابة .. فإن نشأة هاتين الأمتين تؤكد عظمة شأن وشرف العلاقة الزوجية ومقتضياتها عند الله - عز وجل، باعتبار أن هذا الإنشاء كان من خلال هذه العلاقة.

من أجل ذلك نجد اختصاصاً قرآنيا بين النبوة والرسالة والدعوة وبين قضايا الزواج وأحكامه، وذلك من خلال النداء بقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ لرسول الله ﷺ وهو قول الله:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ (٤٥- ٤٦ الأحزاب)

حيث لم يرد هذا النداء في القرآن لرسول الله ﷺ إلا في قضايا الزواج وأحكامه، ومنه ما يتعلق بأحكام زواج النبي نفسه ﷺ مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (الأحزاب:٢٨).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الأحزاب:٥٠).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ، قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ، إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (التحريم:١-٤).

ومنه ما يتعلق بأحكام زواج المؤمنين مثل قوله - تعالى - في أول سورة الطلاق:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا، فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا، وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا، ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا، أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ، لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (الطلاق: ١-٧).

ومنه ما يتعلق بأحكام نساء النبي ﷺ والمؤمنين، مثل قوله في سورة الأحزاب:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ (الأحزاب: ٥٩).

أما بقية الآيات التي ورد فيها النداء ولم تتعلق بالزواج، فقد جاءت هادفة لحماية الأمة من الجانب العسكري الذي يوازي قضية الزواج الهادفة لحماية الأمة من الجانب الاجتماعي، حيث جاءت في أمر الله - عز وجل - إلى النبي ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين، وعدم طاعتهم، وذلك في مثل قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (التوبة:٧٣).

ونفس ألفاظ هذه الآية في سورة التحريم.

أما سورة الأحزاب ففيها قول الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (الأحزاب: ١).

وتعلق هذا النداء في هذه الآيات بجهاد الكفار والمنافقين وعدم طاعتهم، جاء مقترناً بنفس قضية النساء والزواج والأعراض ؛ لأن التحلل الخلقي هو في حقيقته.. حركة نفاق.

والدليل المباشر على ذلك هو ما ورد في سورة الأحزاب ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الأحزاب:٥٩) .

ثم جاء بعدها ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا، مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ (الأحزاب: ٦٠-٦١) .

وكما أن الانحراف الناشئ عن الخطأ في عملية التزاوج سبب في دمار الأمم من البداية، فإن إقامة العلاقة الزوجية الصحيحة بكل عناصرها هي أساس إقامة الأمم، وامتدادها الصحيح .

وحديث الرسول ﷺ (إذا جاءكم من ترضون دينه ..) الوارد في هذا المعنى ليس هو النص الشرعي الوحيد المؤكد لهذا المعنى، بل إن هناك نصوصاً قرآنية تتضمن هذا المعنى بصورة أساسية، وهو ما ورد في سورة البقرة التي ناقشت في سياق واحد أحكام الزواج والطلاق، ثم يتبعها بقصة طالوت ذات المضمون المنهجي المحقق لقدر النصر والغلبة على الكافرين.

وكذلك سورة النساء التي تناقش في بدايتها كل أحكام النساء ثم يتبعها قضية النصرة والنصير.

وسورة المجادلة التي تبدأ بمناقشة حكم الظهار لتنتهي بتقرير ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ، لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (المجادلة: ٢١- ٢٢) .

وفي سورة الفرقان التي تربط بين الإمامة في الدين وقرة العين بالأزواج والذرية .. كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان: ٧٤) .

وبذلك أصبح الزواج من سنن المرسلين، كما قال النبي ﷺ :

(أربع من سنن المرسلين: النكاح والسواك والتعطر والحناء) (١)

(١) رُوي في الجامع بالنون والياء، وسمعت أبا الحجاج الحافظ يقول الصواب (الختان)، وسقطت النون من الحاشية، وكذلك رواه المحاملي عن شيخ أبي عيسى الترمذي .

التوافق بين البيت والدعوة

أسلوب ممارسة الدعوة

وبعد معالجة مفهوم التجرد، نبدأ في المعالجة الواقعية، استمراراً في تحقيق التوافق بين ضرورة الدعوة وتكاليفها، وبين الطبيعة الأسرية في الإنسان بأسلوب الدعوة ذاته، وهذا هو أحد المواقف في واقع الدعوة نرى فيه رجلاً صحابياً اسمه حاطب بن أبي بلتعة يبعث بخطاب إلى أهل مكة يخبرهم فيه أن الرسول ﷺ سيأتي إليهم بجيش، ويعلل هذا بأن كل الصحابة لهم ما يحمي أزواجهم وأولادهم في مكة، فأراد أن تكون له بهذا العمل عند أهل مكة يد يحمي بها زوجته وأهله، ويصدق الرسول ﷺ على هذا التعليل ويقول: (صدق)، ويأمر الصحابة ألا تقول له إلا خيراً[1].

ولما تغيب عثمان عن بدر، كانت تحته بنت رسول الله وكانت مريضة، فقال له النبي ﷺ: (إن لك أجر رجل وسهمه)[2]، وعندما كان الرسول ﷺ يغزو كان يترك على المدينة من يحمي النساء، وكان يترك عليهن أقوى من عنده من الرجال، منهم علي بن أبى طالب.

وكان رسول الله ﷺ يوازى بين ثواب الذي يجهز الغازي وثواب الذي يحمي أهله وبين ثواب الغزو، فيقول: (من جهز غازياً فقد غزا ومن خلفه في أهله فقد غزا)[3]، ومن هنا يتبين أن هدف حماية الزوجة والأهل ليس بالأمر الذي

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٧/٣٠٤) ومسلم (١٦/٥٤) من حديث علي ابن أبي طالب رضي الله عنه.
(٢) البخاري في المغازي (٧/٥٤) والمسند (٢/١٢٠) من حديث ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.
(٣) متفق عليه ، أخرجه البخاري (٦/٤٩) في الجهاد، مسلم (١٣/٤٠) من حديث زيد بن خالد.

يتغاضى عنه أصحاب الدعوة عملياً في تحقيق أهدافها، ولما كان التجمع الإسلامي تجمعاً مجاهداً كان مبدأ كفالة أهل المجاهد مبدأ اجتماعياً، وصيغة هذا المبدأ هي قول رسول الله ﷺ: (من ترك مالاً فلورثته، ومن ترك كلاً فعليّ) (١). ولابد أن تكون كفالة الجماعة المسلمة لأسرة المجاهد كفالة اجتماعية كاملة، وليست مجرد معونة مادية محدودة، وقد توجب تلك الكفالة الزواج من زوجة الشهيد، وزواج الزوجة بعد زوجها إذا مات، أو زواج بعد زوجته إذا ماتت لا ينقض معنى الوفاء والحب الذي كان بينهما.

وهذه أم سلمة كانت تحب أبا سلمة إلى درجة لم تكن تظن فيها أن هناك رجلا يماثله، إذ إنه لما مات قال لها رسول الله: (قولي إنا لله وإنا إليه راجعون، فما من عبد تصيبه مصيبة، ويقول هذه الكلمة إلا أبدله الله خيراً منها)، فقالت في نفسها: ومن أين سيأتيني خير من أبي سلمة ؟!..

فقدر الله أن تتزوج رسول الله ﷺ نفسه، وتصبح أماً للمؤمنين.

وكفالة الجماعة المسلمة لأسرة الفرد المجاهد ليست مجرد معالجة نفسية تحقق طمأنينة المجاهد على أسرته، ولكنها بمعناها الحركي: هي توجيه طاقة الفرد الكامنة في إحساسه بمسئوليته نحو أسرته إلى طاقته الكامنة في إحساسه بمسئوليته نحو دعوته، وبذلك يتحرك الفرد الذي يشعر بالأمان على أسرته بطاقته الكاملة، ويسعى بتلك الطاقة صادقاً إلى الشهادة.

وعندما ينشأ واجب الزواج من زوجة الشهيد فإنه يندب لهذا الواجب أخ متزوج، باعتبار أن الأخ البكر يفضل له الزواج من بكر مثله لقول رسول الله ﷺ عندما سأل جابراً عن زواجه: (أتزوجتها بكراً أم ثيباً ؟، قال: بل ثيباً . قال: أما تزوجتها بكراً تداعبها وتداعبك) (٢).

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/٤٦٤)، وأبو داود (١٠٥-١٠٦/٨)، والنسائي (٢٧٨-٢٧٩/١) وسنده صحيح.
(٢) متفق عليه من حديث جابر رواه البخاري في النكاح (٩/١٢١) ومسلم في النكاح أيضاً .

وندب الأخ المتزوج للزواج من زوجة الشهيد يعني مواجهة الثقل الجاهلي الرافض لمبدأ التعدد.

ومن هنا يصبح هذا الزواج انتصاراً اجتماعياً على الرواسب الجاهلية ..

والتعدد من حيث الأصل الشرعي من الأمور المباحة التي يساوى فيها الفعل والترك، أما باعتباره ضرورة لمعالجة آثار الجهاد الإسلامي في الواقع الاجتماعي للدعوة، فإنه يصير أمراً مندوباً.

وعلة خلف الشهداء في زوجاتهم التي نشأ عنها الندب الشرعي للتعدد، ينفي وجود أي علة متعلقة بالزوجة الأولى لتعدد زوجها عليها، وبذلك يكون من السهل عليها قبول الأمر والرضا به ؛ لتثبت بهذا القول أن زواجها على الأساس الإسلامي لم يكن من مدخل (الأخذ)، وتحقيق المصلحة، بل كان من مدخل (العطاء)، وتحقيق الالتزام، وواقع التعدد لا يتنافى مع مفهوم الحب كأساس للعلاقة الزوجية، فإذا كان الحب بين الزوجين هو أن تكون الزوجة أحب الناس إلى الزوج دون غيرها، فإنه عند التعدد يصير من الواجب على الزوج إقناع كل زوجة من زوجاته بأنها أحب الزوجات إليه.

ولا يمكن القول بأن علة خلف الشهداء في زوجاتهم كمبرر للتعدد يعالج الأمر تماماً عند الزوجة الأولى، ولكنه يخفف من وطأة الأمر عليها.

والجدير بالذكر أن الغيرة بين النساء في واقع الدعوة يخففها الشعور بتميزهن العام عن النساء اللاتي لم يدخلن هذا الواقع، وتثبيت صفة الداعية على المرأة يقلل من صفة الأنثى فيها، وهي الصفة التي تنبع منها مشاعر الغيرة ؛ لأن المرأة – كصاحبة دعوة – تكون ذات اهتمامات عالية ؛ فيقل في كيان المرأة مشاعر الغيرة باعتبار أنها مشاعر لا تتفق مع علو الاهتمامات، وأيضاً فإن الشعور بالخطر الذي يحيط الدعوة يسهم في تحقيق هذا الأمر، وكذلك فمن الممكن توجيه مشاعر الغيرة إلى عامل تنشيط للمرأة في واقع الدعوة لتحقيق

أهدافها، بحيث يصير مقدار هذا التحقيق هو مقدار ما تتميز به عن غيرها من النساء [(١)]، وفي النهاية يجب أن تلجأ الزوجة إلى الله - سبحانه - أن يخفف عليها الأمر ويرضيها به، والله على كل شئ قدير.

وللدعاء في معالجة هذا الأمر أثر محقق - إن شاء الله - بدليل ما كان في زواج رسول الله ﷺ من أم سلمة. فعن أم سلمة قالت: (لما انقضت عدتها بعث إليها أبو بكر يخطبها عليه، فلم تتزوجه، فبعث إليها رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب يخطبها عليه، فقالت: أخبر رسول الله ﷺ أني امرأة غيرَى - أي أن غيرتها شديدة - فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فقال ﷺ: ارجع إليها، فقل: أما قولك: (أني امرأة غيرى) فسأدعو الله فيذهب غيرتك، وأما قولك: (أني امرأة مصبية) فستكفين صبيانك، وأما قولك: (ليس أحد من أوليائي شاهداً)، فليس أحد من أوليائك شاهد ولا غائب يكره ذلك، فقالت لابنها عمر: قم فزوج رسول الله ﷺ فزوجه [(٢)].

وفي هذا الحديث دليل على إمكانية ذهاب الغيرة بالدعاء، ومما لاشك فيه أن فكرة الزوجة الأخرى وما يتعلق بها أمر له خطورته النفسية، ولكن تقديم النموذج الطيب للعلاقة الكريمة بين الزوجات أمر له أثره في معالجة هذه الخطورة.

وهذه عائشة تتحدث عن زينب - رضي الله عنها - فتقول: (وهي التي كانت تساميني منهن في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أرقط خيراً في الدين من زينب وأتقى لله وأصدق حديثاً وأوصل للرحم وأعظم صدقة وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدق به وتقرب به إلى الله - تعالى - ما عدا سَوْرة من حدة كانت فيها تسرع منها الفينة) [(٣)].

(١) ولذلك كان يريد الرسول ﷺ التميز بين نسائه بصالح العمل فيقول (ستتبعني منكن أطولكن يداً ...)، يقصد الرسول ستلحق بي في الآخرة أكثركن كرماً ولكن نساء الرسول فمنهن أن المقصود هو الطول الفعلي فأخذت كل واحدة تقيس ذراعها وتقارنه بذراع الأخريات مما اضحك النبي ﷺ). راجع شرح النووي (١٦/٨).

(٢) أخرجه النسائي في (النكاح) (٨١ —٨٢ /٦).

(٣) الحديث رواه مسلم فضائل الصحابة ١٣(١٥/٢٠٦) شرح النووي، والسورة: الثوران وعجلة الغضب، وأما الحدة: فهي شدة الخلق وثورانه.

وتقول عائشة أيضاً: (وكان النبي ﷺ سأل زينب بنت جحش - زوج النبي ﷺ عن أمري: يا زينب ما علمت أو ما رأيت؟، فقالت يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، ووالله ما علمت إلا خيراً).

قالت عائشة: (وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله تعالى بالورع).

وهذا حوار بين الاثنين ..

قالت زينب: يا عائشة ما قلت حين ركبتيها ..؟! - أي الناقة في حادثة الإفك - قالت: (قلت: حسبنا الله ونعم الوكيل. قالت زينب: قلت كلمة المؤمنين).

وكم كان جميلاً من عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن يستبدل لفظ (جارة) بلفظ (ضرة)، فيقول لابنته حفصة: (لا يغرّنك أن كانت جارتك أَوْسَم منك) (١) يعني عائشة.

وليس الزواج من زوجة الشهيد هو الصورة الوحيدة لأداء واجب الجماعة تجاه أهل الشهيد؛ بل قد يكون لهذا الشهيد أبناء تتعارض مصلحتهم مع فكرة زواج الأم، وعندئذ يكون صبر الأم عن الزواج لتربية هؤلاء الأبناء هو الأمر الواجب، بدليل ما رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (أَنَا وَامْرَأَةٌ سَفْعَاءُ الْخَدَّيْنِ كَهَاتَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - وَجَمَعَ بَيْنَ أُصْبُعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى - امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ آمَتْ مِنْ زَوْجِهَا حَبَسَتْ نَفْسَهَا عَلَى أَيْتَامِهَا حَتَّى بَانُوا أَوْ مَاتُوا) (٢).

وعندما يكون للزوجة أيتام فإن خطر عزوبتها ينعدم، باعتبار أن غريزة الأمومة أقوى من غريزة الجنس، ولولا ذلك ما كان هذا الحث من رسول الله ﷺ على الصبر على زواجها حتى تربي أيتامها.

---

(١) متفق عليه: البخاري (٨/٥٧) ومسلم في الطلاق (١٤٧٩) من حديث ابن عباس عن عمر رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٦/٢٩) . سفعاء: المرأة الشاحبة التي في وجهها سواد وتغير لعدم تزينها ورعايتها لنفسها، آمت: تأيمت، أي مات عنها زوجها. والحديث ضعفه الألباني برقم: ١٣٢٣ في ضعيف الجامع.

وعندما يكون الواجب هو صبر الأم عن الزواج لتربية الأبناء، فإن هناك واجباً جديداً ينشأ على الجماعة تجاه تلك الأم، وهو إنشاء الوضع الاجتماعي الكريم لها، ليس فقط من الناحية المادية، ولكن من ناحية أهم وهي (الكرامة الاجتماعية)، ذلك لأن كرامة المرأة الاجتماعية مرهونة بزوجها [1].

وعندما تختار زوجة الشهيد أن تعيش بغير زوج من أجل أبنائها، يصير أداء واجب تكريمها حقاً لها على الجماعة، وأماناً لها من الانحراف؛ لأن محافظة المرأة على عرضها إنما يكون بمقدار كرامتها بين الناس، لعل هذا مدلول قول (هند) للرسول عند بيعة النساء: (أو تزني الحرة ؟!) [2]، لعل هذا أيضاً هو علة جعل حد الزنا على الجواري نصف حد الحرائر.

وإذا كان خلف الشهداء في أهليهم هو واجب الجماعة فإن واجب المجاهد أن يؤمن أنه وأهله في ولاية الله، وأنهم أمام قضاء الله وقدره سواء؛ ولهذا يبين الرسول ﷺ أن حماية الرجل والأهل مرجعها إلى الله فيقول: (اللهم إنك أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل) [3].

ومع إيمان الزوج بأنه هو وزوجته أمام قدر الله سواء، لابد أن يؤمن أيضاً أنه وزوجته أمام مسئولية الدعوة وتحمل تكاليفها أيضاً سواء، وهذا ياسر وزوجته سمية يستشهدان معاً، والموعد هو الجنة.

---

(١) ولذلك نرى أن زيد الذي كان زوجاً لزينب ويرغب في طلاقها يقول فيها بعد زواجها من رسول الله: فما إن رأيتها بعد زواجها من رسول الله حتى أكبرتها في نفسي.

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٨/٥١) سورة الممتحنة.

(٣) أخرجه مسلم في (الحج) رقم (١٣٤٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

أسس تكوين البيت :

وبعد المعالجة بأسلوب الدعوة نأتي إلى المعالجة بأسلوب تكوين البيت استمراراً في تحقيق التوافق بين واقع الأسرة والدعوة ؛ إذ إن وقت تكوين البيت له خطر كبير على نفس الإنسان صاحب الدعوة، حيث ينشأ الاحتياج المادي ويتعمق الشعور بالشح، ويقوى الاندفاع إلى تحقيق الرغبة في تكوين البيت، وهذا أمر طبيعي في النفس البشرية، يؤكده الرسول ﷺ في حديثه: (كان نبي فيمن كان قبلكم أراد أن يغزو فقال: لا يتبعنا ثلاثة: رجل له عشار وينتظر أن تلد له، ورجل بنى بيتاً ولم يكمله، ورجل عقد على امرأة ولم يبن بها) [1] ؛ ولهذا وجب الاهتمام بالنفس البشرية في وقت تكوين البيت حتى لا يكون هذا التكوين نقطة تحول سيئة في حياة المسلم .

وذلك من خلال عدة قواعد أساسية :

- الربط بين مراحل التكوين وطبيعة البذل تفادياً لأثر الشح، ويتحقق هذا بتنفيذ الوليمة عند البداية وسنة العقيقة بعد الولادة والكرم بصفة دائمة ؛ لأن الإنفاق عندما يخشى الإنسان الفقر ويأمل الغنى - هو الذي يحمى الإنسان من البخل ويحقق البر، إذ يقول الرسول ﷺ: (خير الصدقة وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى) [2].
- وكذلك الربط بين مراحل تكوين البيت والآخرة، حيث تكون المعاشرة الزوجية مرتبطه بتقوى الله: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللهَ﴾ (البقرة:٢٢٣).

وكذلك السعي من أجل الرزق يرتبط بالإحساس بالآخرة ؛ لأن الانفصال بين السعي للرزق وتذكر الآخرة هو الذي ينشئ الانشغال ؛ ولهذا يقول الله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك:١٥).

(١) متفق عليه: البخاري في فرض الخمس (٦/٢٢٠)، ومسلم في (الجهاد) (١٧٤٧) .
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه رقم (٢٤٢٩).

فتذكر الآية بالنشور إلى الله مع الأمر بالسعي للرزق، وفي كل ما يملكه الإنسان في حياته، وحتى أيسر الأشياء، يجب قيام هذا الربط من خلالها، فدعاء ركوب الدابة فيه: (سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون)(١).

ودعاء لبس الثوب الجديد فيه: (البس جديداً وعش سعيداً ومت شهيداً حميداً)(٢)..

غير أن الأمر الخطير حقيقة والذي يسبق في خطورته كل العوامل السابقة ليتحقق التوافق بين واقع الأسرة والدعوة - هو (اختيار الزوجة أو الزوج).

الاختيار:

والقرآن يحدد ضرورة اختيار الزوجة أو الزوج بمقتضى الدعوة، فيقول الله سبحانه: ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (البقرة: ٢٢١).. وواضح من الآية حكمة رفض المشركة أو المشرك؛ في أنهم أصحاب دعوة إلى النار، وأن حياتهم المرتبطة بهذه الدعوة الباطلة لا تتفق مع المؤمن صاحب الدعوة إلى الله: ﴿وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة: ٢٢١)..

والدعوة إلى الله صبغة حياة الداعية، ولابد أن تكون الزوجة والزوج لوناً منسجماً ومتجانساً مع هذه الصبغة،

وقد حدد الرسول ﷺ لنا صفات الزوجة الصالحة بصفة عامة، بقوله: (تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك)(٣).. وقوله ﷺ: (الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة ؛

(١) رواه مسلم (٣٣٣٩).
(٢) أخرجه ابن ماجه وابن السني وأحمد والنسائي والطبراني، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٥٢).
(٣) متفق عليه: البخاري - باب الأكفاء في الدين، ومسلم رقم (١٤٦٦٩) في الرضاع.

إذا نظرت إليها سرتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك)[1] . وفي رواية: (ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء: المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته)[2]. وعن ثوبان قال: لما نزل في الفضة والذهب ما نزل قالوا:(فأي مال نتخذه ؟، قال عمر: أنا أعلم ذلك لكم، فأوضع على بعير فأدركه وأنا في أثره، فقال يا رسول الله أي المال نتخذ ؟، قال: ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة تعين أحدكم في أمر الآخرة)[3] ، ولن تعين الزوجة زوجها على أمر الآخرة ..إلا إذا أرادتها هي ..!

وهي صفة محددة مهمة يجب أن تتزود بها زوجة الداعية :

أن تكون امرأة لا تريد إلا الآخرة، وهذه الصفة شرط أساسي لمعالجة الطبيعة الإنسانية للمرأة في واقع الدعوة ؛ لأن المرأة ستضحي بإحساس الأمان في حياتها والحماية من زوجها، كما أن المرأة ستضحي بالتميز المادي، وهذه كلها أمور تفرضها الدعوة على الزوجين اللذين يعيشان في واقعها، سواء أكانت الدعوة في مرحلة الاستضعاف والجهاد من أجل التمكين، أو في مرحلة التمكين لكي لا يتحول هذا التمكين إلى إمكانية مادية لتطلعات المرأة ورغباتها.

وهؤلاء هن نسوة النبي ﷺ يتظاهرن عليه ويطالبن بتغيير المعيشة بعد أن جاءت الأموال وتحقق التمكين ؛ فأمر الله – سبحانه – النبي ﷺ أن يخير نساءه بين الرضا بالمعيشة التي هن عليها أو الطلاق، فجاء قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا، يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا، وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٢٧– ٢٩).

(١) أخرجه مسلم في الرضاع (١٤٦٧) بلفظ: (الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة)، أما الزيادة ففي رواية أخرجها النسائي ٢/٠٧٢) والحاكم (٢/١٦١) وهي صحيحة أيضاً .

(٢) أخرجه أبو داود (٥/٨١) والحاكم ١/٤٠٩/٠٤٠٨) وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (١٣١٩) .

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٥/٢٧٨) والترمذي (٤٩١–– ٨/٤٩٢)، وابن ماجه رقم (١٨٥٦) وفي اسناده مقال.

فجاء ذكر ميراث الأرض والديار والأموال - وهو السبب الذي جعل النساء يطالبن بتغيير المعيشة - قبل التخيير بين الدنيا والله ورسوله والدار الآخرة.

فالمرأة بطبيعة الضعف والطموح والرغبات المادية لا يمكن أن تَصدُقَ في جهاد، إلا إذا تجردت من تلك الصفات وأرادت الآخرة.

وكما أن إرادة الآخرة شرط في زوجة الداعية لتحمل تكاليف الدعوة، فهي أيضاً شرط لكي لا يكون لها تأثير سيىء في زوجها ؛ إذ أن للمرأة تأثيراً مباشراً في إحساس زوجها بالدنيا ؛ ولهذا يعالج القرآن نظرة النبي ﷺ إلى الدنيا من خلال توجيه زوجاته إلى العبادة، فيكون تصحيح موقف الزوجة حماية لإحساس الزوج: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ، وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (طه ١٣١- ١٣٢).

وتحقق إرادة الآخرة يعتبر أساساً لمعالجة صفة خطيرة في المرأة وهي: (حب التميز)، إذ يجب توجيه هذا الشعور إلى الآخرة تفادياً لخطر اتجاهه نحو الدنيا ؛ حتى يتفق تجردها للدعوة، وقد عالج القرآن هذا الشعور عند نساء النبي ﷺ في قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ (التحريم: ٥).

ففي هذه الآية استفزازٌ صريح لهذا الشعور من خلال النص: (خَيْرًا مِّنكُنَّ)، لأن هذا النص أوجد في إحساس نساء النبي وجود نساء أخريات خيراً منهن، وأصبح حبهن للتميز متجهاً نحو تحقيق الصفات التي ذكرها القرآن للنساء البديلات، وبذلك يصبح التميز دافعاً للعمل الصالح.

ولقد تعامل النبي ﷺ مع نسائه بهذا الأسلوب القرآني فكان يربط التميز بينهن بصالح العمل، فيقول: (ستتبعني منكن أطولكن يداً)(١)

(١) رواه مسلم (١٦/٨) في (الفضائل) وسبق تخريجه.

يقصد الرسول ﷺ ستلحق بي في الآخرة أكثركن كرماً، ولكن نساء الرسول ﷺ فهمن أن المقصود هو الطول الفعلي، فأخذت كل واحدة تقيس ذراعها، وتقارنه بذراع الأخريات؛ فأضحك ذلك النبي[1] ﷺ.

واختيار زوجة الداعية يجب أن يكون باعتبارها أنه إدخال امرأة في واقع الدعوة، وليس مجرد إدخال امرأة في حياة شخص، وهذه مسئولية الداعية صاحب الاختيار، وهي مسئولية ليست سهلة؛ فمن أجل هذه المسئولية كان الأمر بامتحان النساء عند دخول واقع الدعوة في المدينة، إذ جئن مهاجرات ..

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ (الممتحنة: ١٠).

فالمرأة تحمل في طبيعتها عناصر خطيرة مثل عنصر الضعف الذي قد يكون تفسيرا لهجرتها، حيث تكون الهجرة ودخول الواقع الإسلامي هروبا من واقع شخصي سيئ لها في جاهليتها لم تستطع مواجهته أو تحمله، أو عنصر الكيد الذي قد يجعل هجرتها ودخولها الواقع الإسلامي مجرد وسيلة أو أسلوب لتحقيق مأرب شخصي أو هدف ذاتي لها، وما يقال في الهجرة يقال في الزواج، لأن كلا الأمرين إدخال للمرأة في واقع الدعوة، ودليل هذه الافتراضات هو تفسير ابن عباس: (كان يمتحنهن: بالله ما خرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، وبالله ما خرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجت إلا حبا لله ولرسوله)، وقول مجاهد: (فامتحنوهن) فاسألوهن عما جاء بهن، فإن كان الذي جاء بهن غضب على أزواجهن أو سخط أو غيرة، ولم يؤمن فأرجعوهن إلى أزواجهن، قال عكرمة: (يقال لها ما جاء بك إلا حب الله ورسوله؟، وما جاء بك عشق رجل منا ولا فرار من زوجك؟)[2].

(١) الحديث رواه البخاري وراجع شرحه من صحيح مسلم شرح النووي (١٦/٨).
(٢) ذكره ابن كثير.

وفي اختيار الزوج أو الزوجة شرط معروف باسم (شرط التكافؤ) . وفي تحقيق هذا الشرط يجب أن تدخل ظروف الدعوة ؛ لأن قبول الأخ المسلم باعتبار ما قدمه للدعوة من جهاد وبذل، يعني ترسيخ قيم المجتمع المسلم عندما يقوم، ومن هنا يجب أن تنشأ في التجمع الإسلامي الحاسة السليمة التي يأخذ بها كل فرد حقه الاجتماعي بين المسلمين.

ويشترط في ذلك تحول تاريخ الدعاة إلى مهور للزواج، فلا يتكلم أحد عن نفسه ولا يذكر جهادا جاهدة ولا محنة أصابته ويصير هذا الحق مرتبطا بتلك الحاسة الاجتماعية العادلة.

وفى حادثة زواج بلال دليل على هذه الحاسة وذلك الشرط ،إذ قال فيه من قدمه لخطبة إحدى النساء انه مؤذن رسول الله، وصاحبه في جهاده ..

فأسكته بلال قائلا: (إن تقبلوا فالحمد لله، وان ترفضوا فسبحان الله!).

وقبول الأخ باعتبار ما قدمه للدعوة من جهاد لا يجب أن يكون هو السبب الوحيد في هذا القبول، وان كان أساساً له، لأنه - بجانب هذا - يجب أن تكون الزوجة مقتنعة بزوجها اجتماعياً وشخصياً ومادياً، لأنه لو قام اختيار الأخ باعتبار دوره في الدعوة فقط فإن هذا سيترتب عليه أن يكون من ضرورات اطمئنان الزوجة إلى زوجها والرضا بمعيشته هو أن تعرف كل شيء عن دوره في الدعوة، لأن المرأة تحب بطبعها أن ترى في زوجها أسباب اقتناعها به، فينشأ خطر رياء الزوج لزوجته في جهاده ودعوته وعمله.

ومن الأخطاء الشائعة في اختيار الزوجة امتحانها فكرياً من خلال منهج الحركة الإسلامية وبصورة دقيقة ..!

والخطأ في ذلك أن دور المرأة في الجهاد محدد بقوله ﷺ: (جهادكن حج مبرور) [1]، وعلى هذا فيكون الفكر الحركي - كضرورة للجهاد - ليس داخلاً

(١) البخاري في (الحج) (٣/٣٨١) من حديث عائشة رضي الله عنها .

في دور المرأة ولكن من الممكن أن يكون الامتحان الفكري باعتبار الاطمئنان على ذكائها، أو الاطمئنان على استقرارها الفكري خوفاً من ظاهرة التقلب الفكري المرتبطة بظروف الفتنة الفكرية لضمان الاستقرار الاجتماعي بعد الزواج، والجدير بالذكر أن المرأة غالباً ما تتبع ما عليه الزوج، وهذه الحقيقة يجب ألا تجعل الأخ يعوِّل كثيراً على الاختبار الفكري في جلسة الاختيار.

وفي جلسة الاختبار والخطبة غالباً ما يكون الأخ حريصاً على إعطاء صورة خطيرة لمستقبله، وذلك باعتبار الأمانة والاطمئنان على موقف الأخت التي سيتزوجها، والواجب في هذا الأمر باعتبار الأمانة فإنه يكفي فيه الأخ إعلان موقفه كمسلم يعيش في مجتمع جاهلي، وباعتبار الاطمئنان على موقف الأخت فإن قبولها للزواج من الأخ المسلم يعني ضمناً الاستعداد لتحمُّل الصعاب الناشئة عن اتخاذ الموقف الإسلامي الصحيح في المجتمع الجاهلي، ولكن ليس من الصواب الاستطراد في ذكر الخطر والمبالغة في تصوير المحن، إذ إنه قد يصل
الصواب الاستطراد في ذكر الخطر والمبالغة في تصوير المحن، إذ إنه قد يصل
هذا الخطأ إلى حد تشعر فيه الأخت أن الذي أمامها ليس خطيباً يريد الزواج، ولكنه مصيبة أتتها، وبلاء تمر به.

وبعد تحقيق التوافق بين الأسرة والدعوة، ووضع البيت في اتجاه الحركة من خلال معالجة مفهوم التجرد وتحقيق التوافق بأسلوب الدعوة، ثم تحقيقه في تكوين البيت تتحقق الآثار الطيبة للزواج، وتتأكد قيمته في واقع الدعوة من ناحية الفكر والعقيدة وناحية الحركة والعمل.

آثار الزواج من ناحية الفكر والعقيدة:

وأول تلك الآثار هو أثر الزواج في الاعتقاد المترتب على أثر الحب في الفكر فهناك حقيقة إسلامية في النفس الإنسانية تؤكد أثر القلب والإحساس في الفكر اتفاقا واختلافا ومنطوق هذه الحقيقة هو قول الرسول ﷺ: (الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تنافر اختلف)(١).

كذلك فهناك حقيقة أخرى تؤكد أثر العقل والفكر في القلب والإحساس اتفاقا أو اختلافا، ومنطوقها قول الرسول ﷺ: (ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم)(٢).

ولما كان للزواج صلة مباشرة بإحساس الحب وللاعتقاد صلة مباشرة بصفة التفكير أصبحت هناك علاقة مباشرة بين الزواج والاعتقاد، وهذه أمثلة تؤكد هذه الحقيقة:

فهذا العاصي بن الربيع – زوج زينب بنت النبي ﷺ – يخرج من مكة فرارا من الإسلام فتبعث إليه ليرجع إلى مكة، ويدخل في الإسلام، فيبعث إليها برسالة هذا بعض نصها: (والله ما أبوك عندي بمتهم، وليس أحب إلي من أسلك معك – يا حبيبة – في شعب واحد، ولكني أكره لك أن يقال أن زوجك خذل قومه، فهلا عذرتي وقدرتي).، وواضح من الرسالة أن العاصي كان يحب زينب، بدليل أنه يود ويحب أن يكون معها في طريق واحد، أيما كان هذا الطريق، كما أنه كره أن يقال لها ما يضايقها، ثم انه يطلب منها في النهاية أن تعذر وتقدر، ومن أجل هذا الحب فإن زينب استطاعت أن تذهب إليه، وتأتي به مسلما.

وهذا الطفيل بن عمرو الدوسى يدخل في الإسلام؛ فتأتي امرأته لكي تقترب منه، فيمنعها، ويقول لها: (لقد أصبحت عليّ حرام، قالت: ولِمَ؟، قال: أسلمت، فكان ردها: أنا منك وأنت مني، وديني دينك، وأسلمت(٣).

(١) علقه البخاري (٦/٣٦٩) ومسلم رقم (٢٦٣٨).
(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٤ - ٢/٣٦٥) و النسائي (٨٩ -٢/٩٠) وسنده صحيح .
(٣) ذكرها ابن إسحاق مرسلة، أنظر البداية والنهاية (٣/٩٩).

وواضح من هذا الرد أنها اعتنقت الإسلام من خلال إحساسها بزوجها، حيث قالت: أنا منك وأنت منى، وأخذت من إحساسها أساساً لاعتناقها الإسلام فقالت: وديني دينك (١).

وهذه أم حكيم بنت الحارث بن هشام، أسلمت يوم الفتح بمكة، وهرب زوجها عكرمة بن أبي جهل من الإسلام حتى قدم اليمن، فارتحلت أم حكيم حتى قدمت عليه باليمن، فدعته إلى الإسلام فأسلم، فقدم على رسول الله - ﷺ- مسلما.

وهذه أم سليم يأتى أبو طلحة ليتزوجها- وهو مشرك- فتأبى وتقول له: (إن أسلمت تزوجتك وصداقي إسلامك) ؛ فأسلم فتزوجته (٢).

فهذه الأمثلة توضح آثار العلاقة الزوجية والحب في الاعتقاد والفكر.

وإذا قرأنا كتب السيرة، فسنجد أن الملاحظة العامة هي أن الذين أسلموا كان إسلامهم غالبا من خلال هذه العلاقة، وهذا هو أثر الزواج في العقيدة من ناحية الحب.

وكما أن العلاقة الزوجية القائمة بالحب تعتبر أساساً للاتفاق في الاعتقاد والفكر، فان هذا الاتفاق الفكري يعتبر بدوره أساسا لاستمرار العلاقة الزوجية وثباتها ؛ وذلك لأن هذا الاتفاق الفكري بثباته هو الذي يعطى للعلاقة الزوجية صفة الاستقرار التي تحميها من أثر الفتور الوجداني والتقلب النفسي الذي قد يعرض لتلك العلاقة.

ثم تأتى ناحية الفطرة والجمال والمنفعة كعلاقة بين الزواج والاعتقاد، فالاعتقاد يقوم بالفطرة في الإنسان والمنفعة والجمال في الكون ..

وهذه العناصر الثلاثة هي مدار العرض القرآني لقضايا الاعتقاد، وهي التي تتعمق في النفس بالزواج ؛ لأن الفطرة هي العنصر الأول في تحقيق الإيمان في الإنسان بأعماله الفطرية مهما كانت يسيرة ..

(١) أنظر كتاب أسد الغابة (٤/٧٠) ونسب قريش للزبيري (ص/٣١٠).
(٢) أخرجه النسائي في (الكبرى) وأنظر أسد الغابة (٣٤٥ - ٣٤١ /٧).

حتى ولو كان العمل مثل (قص الأظافر) الذي أخبرنا الرسول ﷺ أنه من الفطرة[1]. وقياسا على هذا العمل اليسير يصبح الزواج أقوى سلوك فطرى يحقق التزاوج في الإنسان لأن الله خلقنا ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (النساء:١). وبذلك تقوى الفطرة بالزواج.

وعندما يتزوج الإنسان أيضا فانه يحقق السرور بالنظر إلى من اختارها زوجة له، لقوله ﷺ: (إذا نظرت إليها سرتك)، وارتباط السرور بالنظر هو معنى الإحساس بالجمال، وبذلك أيضا يعمق الزواج في النفس الإحساس بالجمال.

وعندما يتزوج الإنسان فانه يكون قد حقق خير المتاع لنفسه في الحياة الدنيا، وحقق خير المنافع لأن (الدنيا متاع .. وخير متاعها المرأة الصالحة)[2] ..

وبذلك يكون الزواج فطرة ومنفعة وجمالا .. يعطى الإنسان عمقا للإحساس بالقرآن، وهو يعرض قضية الإيمان بالله من خلال هذه العناصر الثلاثة ..

(الفطرة) في الإنسان و(المنفعة) و(الجمال) في الكون ..

ولذلك جاء في تفسير قول الله عز وجل: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ (النور:٣٣) قول عكرمة: (هو الرجل يرى المرأة فكأنه يشتهى، فإن كانت له امرأة فليذهب إليها وليقضى حاجته منها، وان لم يكن له امرأة فلينظر في ملكوت السماوات والأرض حتى يغنيه الله)[1].

واضح في قول عكرمة كيف أن النظر في ملكوت السموات والأرض هو التصرف المعالج لأثر افتقاد الزوجة، وكيف أن الزواج يجمع آثار النظر في ملكوت السماوات والأرض، حيث تكون الفطرة والمنفعة والجمال.

ونواصل بحث آثار الزواج في واقع الدعوة من ناحية الحركة ..

---

(١) قال رسول الله ﷺ (خمس من الفطرة: الختان والاستحداد وتقليم الأظافر ونتف الإبط وقص الشارب) (متفق عليه).

(٢) رواه مسلم، وسبق تخريجه.

(٣) ابن كثير ج٦: ٥٥.

فالعلاقة الزوجية تغرس في النفس طاقة الامتداد بقضايا الدعوة في حياة الناس ، وذلك عندما ترتبط الدعوة بعملية التزاوج ؛ إذا أن الإنسان يحب بطبعه أن يكون آي أمر مرتبط بزواجه أمرا عاما في حياة الناس كلهم ؛ ولذلك نرى أن السيدة عائشة كانت تحب أن يتزوج النساء في شهر شوال ؛ لأنها تزوجت في هذا الشهر: عن عائشة- رضى الله عنها- قالت: (تزوجني رسول الله ﷺ في شوال، فأي نساء رسول الله ﷺ كانت أحظى عنده منى ؟، وكانت عائشة تستحب أن تدخل نساءها في شوال) (١).

وكذلك فان إحساس الغيرة والدفاع عن العرض كان الإمكانية الأولى لحماية الدعوة؛ إذا إن الولاء الحركي نشأ ارتكازاً على طبيعة الغيرة والدفاع عن العرض، ولهذا كان نص البيعة بين رسول الله ﷺ والأنصار هو قوله: (أن تحموني مما تحمون منه نساءكم وأموالكم) (٢)، وتبقي طبيعة الغيرة الإنسانية على العرض طاقة مستمرة لحماية الدعوة، حتى تصبح الغيرة على الدين قرينة الغيرة على العرض، ولذلك يقول الرسول ﷺ: (الحلال بَيِّن والحرام بَيِّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه) (٣).

والعلاقة الزوجية تغرس في نفس الإنسان صفة أخلاقية مهمة تعتبر الأساس الأول في الالتزام بالجماعة المسلمة، وهذه الصفة هي الارتفاع بمستوى الالتزام بالجماعة فوق مستوى الانفعال النفسي، وذلك لأن العلاقة الزوجية هي التي تحقق في الطبيعة الإنسانية صفة الاتزان السلوكي ؛ لأن ثبات العلاقة الزوجية دون التأثر بالانفعالات النفسية قاعدة قرآنية، إذ يقول الله- عز وجل-: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ١٩).

(١) رواه مسلم رقم (١٤٢٣) من حديث عائشة رضي الله عنها .
(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣/٣٢٢) وفيه (وعلي أن تنصروني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم ....)، صححه الحاكم (٦٢٤ - ٦٢٥/٢)، ووافقه الذهبي وجوده ابن كثير في النهاية (٣/١٦٠) .
(٣) متفق عليه: والبخاري في الإيمان (١/١٢٦)، ومسلم رقم (١٥٩٩) عن النعمان بن بشير .

ولذلك يقول الإمام ابن القيم في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢١٦)، وقوله عز وجل: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء:١٩): (فالآية الأولى في الجهاد الذي هو كمال القوة الغضبية، والثانية في النكاح الذي هو كمال القوة الشهوانية، فالعبد يكره مواجهة عدوه بقوته الغضبية خشية على نفسه منه، وهذا المكروه خير له في معاشه ومعاده، ويحب الموادعة والمتاركة، وهذا المحبوب شر له في معاشه ومعاده، وكذلك يكره المرأة لوصف من أوصافها، وله في إمساكها خير كثير لا يعرفه، ويحب المرأة لوصف من أوصافها، وله في إمساكها شر كبير لا يعرفه، فالإنسان كما وصفه به خالقه ظلومٌ جهول، فلا ينبغي أن يجعل المعيار على ما يضره وينفعه ميله وحبه، ونفرته وبغضه، بل المعيار على ذلك ما اختاره له بأمره ونهيه) — طريق الهجرتين وباب السعادتين.

وهذا هو المطلوب في علاقة الرجل بالجماعة؛ إذا إن الالتزام بالجماعة المسلمة لن يكون صحيحا إلا إذا ارتفع فوق الظروف النفسية، ومن هنا كانت البيعة على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره.

كما أن العلاقة الزوجية هي أكبر أسس الالتزام في الدعوة الإسلامية من الناحية التنظيمية، وذلك لأن ولاء الزوجة للجماعة يكون من خلال علاقتها بزوجها وقوامته عليها؛ إذ أن علاقة الزوجة بزوجها هي علاقة سمع وطاعة، وعلاقة الزوج بالجماعة المسلمة هي أيضا علاقة سمع وطاعة، ولهذا لم تكن هناك بيعة مباشرة لأي امرأة في الجماعة المسلمة، بدليل أن الرسول ﷺ لم يبايع النساء إلا بيعة عامة، فليس هناك ولاء مباشر بين امرأة وأخرى؛ لأن المرأة في الدعوة لا تتولى الأمور، والدليل هو قول الرسول ﷺ: (ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة) (١).

(١) البخاري في التفسير (١٢٦ /٨) من حديث أبي بكرة.

والقاعدة في العلاقة بصفة عامة أن الرجال ولاة النساء، والله يقول: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾ (التوبة: ٧١): أي أن المؤمنين أولياء المؤمنات.

ومن هنا كانت هناك قاعدة مهمة تتعلق بالعلاقة التنظيمية بين الأسرة والجماعة، وهي أنه لا يجوز للجماعة أن تتدخل في واقع الأسرة إلا من خلال الزوج- صاحب تلك الأسرة- بدليل أنه عندما أراد الرسول ﷺ أن يجعل النساء يخرجن إلى المساجد لم يصدر إليهن أمراً مباشراً بذلك، ولكنه أمر النساء ألا يخرجن بدون إذن الأزواج، فقال: (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تخرج من بيتها بدون إذن زوجها)[1]، ثم أمر الرجال بألا يمنعن النساء من المساجد، فقال: (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله)[2].

والملاحظ في الحديث أن الرسول ﷺ ذكر النساء بوصفهن إماء الله، حتى يكون منطقيا ألا يُمْنَعن عن مساجد الله، وذلك لكي لا يطغى إحساس الرجل بالمرأة التي تجب عليها طاعته على إحساسه بها كأمة لله تريد عبادة الله.

وهناك مثال تطبيقي لتلك القاعدة التنظيمية التي تحدد العلاقة بين الأسرة والجماعة من خلال قوامة الرجل على زوجته وولائه للجماعة، وهذا المثال هو حادثة كعب بن مالك عندما تخلف عن غزوة تبوك، حيث أراد الرسول ﷺ أن يقاطعه المسلمون، فأصدر أمره إلى المسلمين بمقاطعته، ولكن عندما أراد ﷺ أن تقاطعه زوجته لم يأمرها هي بذلك، بل أمره هو أن يقاطعها، فأمر كعب زوجته أن تذهب إلى أهلها، وتصرف الرسول ﷺ بهذا الأسلوب يثبت هذه القاعدة المحددة للعلاقة التنظيمية بين الأسرة والجماعة.

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي (٢/٢٦٣) بلفظ (... وأن لا تخرج من بيته إلا بإذنه ...) من طريق الليث عن عطاء عن ابن عمر، وأخرجه البزار (٢/١٧٧) بلفظ (.... ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه ...) من طريق حنش الرحبى عن عكرمة عن ابن عباس، ولهما شاهد عند الطبراني في الكبير (٢٠/٦٢) من طريق السكسكي عن معاذ ولفظه: ولا يحل لامرأة أن تأذن في بيت زوجها إلا بإذنه ولا تخرج وهو كاره. قال الهيثمي (٤/٣١٣): رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما ثقات .

(٢) البخاري في (الصلاة) (٢/٣٨٢) ومسلم (٤٤٢) في (الصلاة) من حديث ابن عمر بلفظ آخر . واللفظ المذكور لأبي داود كما في سننه (٢/٢٧٣) من حديث أبي هريرة .

وإذا كان الـزواج بتصور الحركة الإسلامية يمثل طاقة للامتداد بقضايا الدعوة، وإمكانية أساسية لحماية الدين باعتبار الربط بين الغيرة على العرض والدين، وأساساً في تحقيق الالتزام بالجماعة من الناحية النفسية والتنظيمية- فإن إطار الحركة هو إطار العمق النهائي في المشاعر الزوجية وصدقها، باعتبار وحدة الموقف والهدف بين الزوجين كأصحاب دعوة يعيشان واقعا واحدا يحيط به الخطر من كل ناحية، وبذلك يأخذ البيت استمرارية هدف الدعوة وارتفاعه، وتأخذ العلاقة الزوجية عمق الارتباط الفكري الذي قامت عليه الجماعة المسلمة.

ونواصل بحث آثار البيت في الفكر والحركة ..

فنأتي إلى الإحساس بالأبوة وأثره في الاعتقاد والحركة ونبدأ بناحية الاعتقاد.. فالإحساس بالوالدين يعمق في الإنسان الإحساس بالعبودية لله - سبحانه - إذ أن العبودية في حقيقتها هي الخضوع لله والإحساس بسلطانه علينا ؛ ولذلك فإن الرسول ﷺ عندما يقر بعبوديته لله.. فإنه يقر كذلك بعبودية والديه، ليزداد الإحساس بالعبودية عمقا، فيقول:(اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك) (١).

فيتضح من الحديث كيف أن الإحساس بسلطان الله - الذي عبر عنه الرسول ﷺ: (ناصيتي بيدك ماض في حكمك)- بدأ بإقراره بعبودية والديه.

ومن هنا كان الإحساس بالوالدين حماية للإنسان من فقدان الإحساس بسلطان الله علينا، حيث أن فقدان هذا الإحساس هو سبب الجبروت والشقاوة والعصيان ؛ ولهذا يقول الله -سبحانه- على لسان عيسى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ (مريم:٣٢) ، وعن يحيى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ مريم:١٤).

(١) صحيح: أخرجه الإمام أحمد (١/٣٩١) والحاكم (٥٠٩/ ١)، وابن حبان (٣٢٧٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه . وهو المعروف بدعاء الهمّ .

كما كان ذكر عيسى -عليه السلام- دائماً بصيغة: (عيسى ابن مريم) من أساليب الإثبات لعبوديته.

غير أن هناك موقفا آخر يؤكد قيمة الإحساس بالوالدين كحماية من الغرور، وهو موقف يوسف - عليه الصلاة والسلام- في لحظة التمكين عندما سجد له إخوته، فكانت معالجة هذا الموقف أن يوسف رفع أبويه على العرش؛ ليشعر بسلطان الله عليه، وعبوديته له، ومن هنا كان الإحساس بالوالدين ملازما لعبوديتنا لله في قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ (الإسراء:٢٣)، وكان معنى الشكر للوالدين ملازما لمعنى الشكر لله في قوله تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (لقمان:١٤).

وما سبق يبين أثر الإحساس بالوالدين في الاعتقاد.

وندخل في مجال الحركة.. لنجد أن هذا الإحساس يغرس في نفس الداعية، خوفا وقلقا على الإنسان الذي يدعوه؛ ولهذا يصور الله -سبحانه- مدى حرص الذين يعلمون الحق على الذين لا يعلمون في صورة اللذين يدعوان ولدهما إلى الإيمان: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ (الأحقاف:١٧).

وعلاقة الأبناء بالآباء تغرس في النفوس الإحساس السليم بالسلطة، فإن كانت سلطة شرعية ممثلة في والدين مؤمنين، وجب الخضوع لهما وطاعتهما، وإن كانا غير ذلك، وجب الخروج عليهما؛ لأن الله يقول: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (لقمان:١٥)، وبذلك يصبح للوالدين الأثر الكبير في شخصية الفرد وعلاقته بالسلطة، فيصبح الخروج على السلطة أو الخضوع لها بمقياس واحد هو مقياس الشريعة؛ ليتفادى الإنسان عقدة التمرد على السلطة بالباطل أو الخضوع لها بدون حق. وهذا هو أساس الدعوة وغايته.



الذرية

ثم تأتي الذرية، فنجد أن البيت بعد أن يتكون بتصور الحركة، يصبح بذاته منطلقا للتصور الحركي عن الذرية، فالذرية في بيت الدعوة ليست مجرد إحساس بالرغبة في التناسل ؛ إذ أن الإحساس بالذرية في واقع الدعوة يأتي باعتبار أن هذه الذرية هي الاستمرار البشرى لواقع الدعوة، بما في هذا الاستمرار من إمكانية وطاقة، وهذا معنى ما جاء في تفسير قول الله عز وجل: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان:٧٤) يعني الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم وذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له، قال ابن عباس: (يعنون من يعمل بالطاعة ، فتقر أعينهم في الدنيا والآخرة).

وقال عكرمة: (لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالا، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين). وقال الحسن البصري- وقد سئل عن هذه الآية -: (أن يُري الله العبد المسلم من زوجته، ومن أخيه، ومن حميمه طاعة الله، لا والله ما شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولدا أو أخا أو حميما مطيعا لله عز وجل) ؛ ولهذا نجد زكريا يصرح في دعائه لله- عز وجل- بالذرية بضرورة الاستمرار فيقول: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ (مريم:٥،٦).

وكما ارتبطت قرة العين بالطاعة ارتبطت كذلك بالجهاد، وهذا نبي الله سليمان يرغب في إنجاب مائة فارس، حيث جاء في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أن سليمان قال: (لأطوفن الليلة على مائة امرأة تنجب كل واحدة فارسا يجاهد في سبيل الله)[1].

(١) رواه البخاري (٩/٣٣٩)، و (٤٥٨ /٦) عن أبي هريرة ومسلم عنه أيضاً رقم (١٦٥٤) .

ومن هنا كان قول النبي ﷺ: (ما تعدون فيكم الرقوب؟ قال: قلنا الذي لا ولد له، قال: لا، ولكن الرقوب الذي لم يقدم من ولده شيئا) [١] أي في سبيل الله.

وبهذا التعريف يكون ارتباط الرغبة في الذرية بالجهاد في سبيل الله، وليس أدل على الدعوة واستمرارها بالذرية من قصة التيه الذي كتبه الله على بنى إسرائيل؛ إذ إن المقصود من هذا الحكم كان إنهاء وجود الجيل الضعيف وإنشاء جيل قوى، وهو الذرية التي ولدت في التيه، والذين تم على أيديهم فتح بيت المقدس، كما جاء عند ابن كثير: (فلما انقضت المدة- أي مدة التيه - خرج بهم يوشع بن نون- عليه السلام- أو بمن بقى منهم وبسائر بنى إسرائيل من الجيل الثاني- يعنى الذرية القوية)، وفى رواية ابن أبى حاتم: (فهلك كل من جاوز الأربعين سنة- يعنى الذرية الضعيفة).

والذرية هي الرصيد الفطري الذي تقوم عليه الدعوة؛ ولهذا دعا نوح بهلاك القوم لما رأى هذا الرصيد الفطري يحترق فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ، إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (نوح: ٢٦، ٢٧). ولهذا أيضا لم يدع النبي ﷺ على قومه لما كان عنده أمل في ذرية هؤلاء القوم. فعندما نزل ملك الجبال على الرسول ﷺ في الطائف، وقال له (مرني أن أطبق عليهم هذين الأخشبين)، فقال عليه الصلاة والسلام: (دعهم؛ فإني أرجو الله أن يخرج من ظهورهم من يعبده ولا يشرك به شيئا) [٢].

والأمل في الذرية الذي نؤكده من خلال موقف نوح والرسول- صلى الله عليهما وسلم- هو في الحقيقة أساس وجود الدين على الأرض؛ لأن بقاء الحياة الدنيا مرتبط بوجود الفطرة.

بدليل قول رسول الله ﷺ: (لا تقوم الساعة إلا على لكع بن لكع) [٣] يعنى: كافر

---

(١) رواه مسلم في كتاب (البر) (١٠٦) وأحمد (١/٣٨٢، ٥/٣٦٧).
(٢) رواه مسلم (١٤٨) في الإيمان عن أنس.
(٣) صحيح: أخرجه الترمذي رقم (٢٢٠٩) وأحمد في المسند (٥/٣٨٩) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

ابن كافر، وفيه دليل كفر الناس وذريتهم ؛ إذ ينعدم الرصيد الفطري ويصير أولاد الدنيا كلها مثل أولاد قوم نوح فتقوم الساعة.

وارتباط الذرية بمنهج الدعوة يحتم التركيز على فطرة الطفولة والشباب؛ فكلما طال عمر الإنسان في جاهليته كلما بعد عن الفطرة، وقل استعداده للالتزام بالحق والجهاد في سبيل الله ؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: (فصدقني الشباب وكذبني الشيوخ). وقال الله - تعالى- عن قوم موسى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾(يونس:٨٣). وهذه الظاهرة مرتبطة بحقيقة في النفس الإنسانية يحددها الرسول ﷺ بقوله: (يكبر الإنسان ويكبر معه شيئان، المال والحياة) [١].

ومما لاشك فيه أن حب المال وحب الحياة هما الداءان الأوليان في معرفة الحق والالتزام به، وهذا ما يحتم على أصحاب الدعوة اعتبار فترة الطفولة والشباب فرصة أساسية في حياة الإنسان ؛ ولهذا فرح المسلمون فرحا شديدا بمولد عبد الله بن الزبير- وهو أول مولود في المدينة بعد الهجرة- وذلك لأن اليهود وهي التي تعلم قيمة الذرية في الدعوة وأثر الآباء في الأبناء- هي التي حاولت بالسحر أن توقف الاستمرار البشري للدعوة الإسلامية ؛ ولهذا جاء في صحيح البخاري[٢] أنه لما ولد عبد الله بن الزبير وهو أول مولود ولد في المدينة فرح المسلمون فرحا شديدا لأنهم قيل لهم إن اليهود سحرتكم فلا يولد لكم، غير أنه لكي تكون الذرية امتداداً بشرياً قوياً للدعوة الإسلامية كان لابد من الربط بين أسس التربية الإنسانية وضرورات الدعوة، حتى تصبح هذه التربية تهيئة فعلية للممارسة الصحيحة لتلك الدعوة، والاستعداد لتحمل تكاليفها، ومن أجل الذرية تكون التربية ..

(١) متفق عليه: البخاري (١١/٢٣٩) في الرقاق، ومسلم رقم (١٠٤٧) من حديث أنس.
(٢) البخاري في (العقيقة) (٩/٥٨٧) ، وأصله في صحيح مسلم في (الأدب) رقم (٢١٤٦).

أسس التربية :

والأساس العام في التربية هو حقيقة التوازن ، لأن هذه الحقيقة أساس الخلق، سواء في مجال البناء الكوني أو البناء الإنساني، حيث أن العلاقة بين البناء الكوني والإنساني حقيقة ثابتة ذكرها ابن القيم في كتاب الفوائد حيث يقول: إن الإنسان هو الغاية التي خلق الله سبحانه لأجلها ما سواه من السماوات والأرض والقمر والنجوم والبر والبحر، وأن الله سبحانه وتعالي جمع ما فرقه في العالم في آدم، فهو العالم الصغير، وفيه ما في العالم الكبير وأن الإنسان هو خلاصة الوجود وثمرته.

وبذلك تقوم تربية الأولاد على أساس التوازن باعتبار أن مرحلة التربية هي مرحلة التكوين لهذا البناء الإنساني .

ولذلك نلاحظ أن مفهوم التوازن نفسه هو مضمون أساسيات منهج التربية.

فنجد التوازن بين المنع العطاء ، والتوازن بين الترغيب والترهيب ..

والتوازن بين مسلمات حق الطفولة ومقتضيات التهيئة للرجولة .

إلي آخر حقائق التوازن الواضح في منهج التربية .

والآن وبصورة محددة ننتقل إلى أساسيات هذا المنهج:

أولاً: إتمام الرَّضاعة :

وهذا الأمر له منافع كثيرة، ولكنه يمثل ضرورة مهمة للدعوة، وهي أن إتمام الرضاعة يحمي الفرد من حب الإمارة والرغبة في التسلط [١] بدليل هذا الحديث: عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: (إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة) [٢]، ولعلنا ندرك قيمة هذا الأمر في مواجهة واقع التفرق والاختلاف.

(١) قام مجموعة من العلماء بإجراء بعض الأبحاث والتجارب علي قبائل مختلفة لبحث العلاقة بين الرضاعة وحب التسلط، وكانت النتيجة أن الفرد الذي لا تتم رضاعته ينشأ فاقداً للثقة بنفسه، تلازمه رغبة شديدة في التسلط.

(٢) البخاري في الأحكام (١٣/١٢٥) من حديث أبي هريرة .

ثانياً: التربية العقدية

وتلقين العقيدة يقوم تربوياً على الثقة في عقلية الطفل إلى درجة القدرة على التجريد المعنوي للحقائق، فيكون الطرح العقدي البسيط على الطفل، لأن الثقة لا تعني التعقيد في المضمون أو الأسلوب .

أما دليل البساطة في تلقين العقيدة فهو سؤال النبي ﷺ لجارية صغيرة عن الله والرسالة، عن معاوية بن الحكم قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إن جارية كانت لي ترعى غنما لي، فجئتها وقد فقدت شاة من الغنم، فسألتها عنها فقالت: أكلها الذئب، فأسفت عليها.. وكنت من بني آدم.. فلطمت وجهها، وعليّ رقبة أفأعتقها ؟ فقال لها رسول الله ﷺ: أين الله ؟ فقالت: في السماء، فقال: من أنا ؟ فقالت: أنت رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: أعتقها) .

وفي إطار التلقين العقدي للطفل يجب أن ننأى بقضايا الخلاف عن أبناء الدعوة، لأن تعرضهم في طفولتهم لهذه القضايا يجعل منها خلفية فكرية لعقليتهم، بل ويجعل هذه القضايا عندما يصطدمون بها في صغرهم محوراً لحياتهم الاجتماعية بأسرها .

وهذا مثل مضحك لهذه النتيجة، وهو من مضحكات الفتن، وذلك أن زوجة رجل قدري (الذين يعتقدون أنه لا مشيئة للإنسان وأن الأمر أُنُف) أخطأت خطأ أخلاقياً جسيماً، فأراد زوجها أن يعاقبها ويفتك بها، فلما رأت أنها هالكة لا محالة، قالت: يا رجل ! ألم تعلم أن الأمر أُنُف وأنه لا حيلة لي فيما فعلت، أم أنك تريد أن تقول بمذهب ابن عباس، فثاب الرجل إلى رشده واستغفر على محاولة عقابها !.

ومن أهم أساسيات تربية الأولاد عقدياً هو تنشأتهم على حب الرسول ﷺ ذلك أن التربية على حب رسول الله ﷺ لها قيمة تربوية عليا، لأنها تحمي الشخص المسلم من التيه في مرحلة اختيار المثل - مرحلة الشباب - فيمنعه ذلك أن يتأثر بأي شخصية أخرى مهما بلغ شأنها ويصبح رسول الله ﷺ هو القدوة والأسوة الحسنة.

ولعل النص القرآني في التعقيب على التأسي برسول الله هو الذي يحدد العلاقة بين هذا التأسي وبين الغاية النهائية للمسلم . وهي الله واليوم الآخر، فقالت الآية: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب: ٢١) .

وأساس الارتباط بين التأسي برسول الله وتحقيق غاية المسلم؛ هو أن هذا الحب يحقق أعمق بُعد عاطفي للتصور الاعتقادي في كيان الإنسان المسلم . ولعل حادثة ابني عفراء دليل على قيمة الانطلاق من هذا الحب في واقع الدعوة .

أخرج الشيخان عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: (إني لواقف يوم بدر في الصف فنظرت عن يميني وشمالي فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما تمنيت أن أكون بين أضلع منهما فغمزني أحدهما فقال يا عماه ! أتعرف أبا جهل ؟ فقلت نعم وما حاجتك إليه ؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر فقال لي أيضاً مثلها فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل وهو يجول في الناس فقلت ألا تريان هذا صاحبكما الذي تسألان عنه ؟ فابتدراه بسيفهما فضرباه حتى قتلاه ثم انصرفا إلى النبي الله ﷺ فأخبراه فقال: أيكما قتله، قال كل منهما أنا قتلته فقال هل مسحتما سيفيكما قالا: لا !، فنظر النبي ﷺ في السيفين فقال: كلاكما قتله) .

ولعلنا نلاحظ أن الاثنين كانا مندفعين إلى غايتهما من الإحساس بالألم من سب أبي جهل لرسول الله ﷺ، حتى بلغا هذه الغاية التي كانت -ولا شك- بعيدة .

فالظرف الذي يسألون فيه عن بغيتهم كان ظرفاً قتالياً، وبغيتهم لم تكن شخصاً عادياً، بل كانت رأس الكافرين، الذي كان ولا شك محاطاً بسياج من الحماية العسكرية . أو بتعبير راوي الحديث (يجول في الناس) ومع ذلك بلغا بغيتهما ونجحا في المهمة.

ثالثاً: تحقق العبودية لله:

العبودية لله هي الغاية النهائية للدعوة، لذلك يقول رسول الله ﷺ: (علّموا أولادكم الصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع) (١)، وهذا الأمر هو الذي سيغرس في نفس الولد الإحساس بالتناقض بينه وبين أي مجتمع لا يقيم الصلاة، وسيبقى الإحساس بالتناقض آخذاً صورة العمل للتمكين لهذه الدعوة حتى ينتهي هذا الإحساس بإسلام المجتمع وإقام الصلاة..

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ (الحج: ٤١).

كما أن الأمر بالعبادة هو منبع القدرة الفعلية على تحمُّل تكاليف الدعوة، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ، وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: ١٥٣ - ١٥٤).

والأمر بالصلاة هو الذي يحمي الحركة الإسلامية - عند الجهاد والقتال - من الخروج عن طبيعتها وغايتها، إذ إن الرسول ﷺ عندما سئل أي العمل أفضل قال: (الصلاة على وقتها، قيل: ثم أي؟، قال: بر الوالدين، قيل: ثم أي؟، قال: الجهاد في سبيل الله) (٢).

فيأتي الجهاد من منطلق العبادة وبعد بر الوالدين، فلا يخرج القتال عن هدف تحقيق العبودية لله في الأرض، وحماية المجتمع المسلم القائم بالبر، وعلى هذا فالمسلم الذي يقيم الصلاة هو الذي يندفع بكل طاقته الإنسانية لتحقيق غاية الدعوة - إذا كان يعيش واقعاً جاهلياً - وتحقيق التوافق بين تصوره والواقع الذي يعيشه، وينتزع إحساسه بالتناقض بينه وبين المجتمع الجاهلي بعملية التغيير التي تمثل الحركة الإسلامية.

وعنصر الضرب من أجل الصلاة معناه التدخل المباشر في تكوين الشخصية الإنسانية بما يتفق مع غاية الدعوة، وهذا ينمي في تلك الشخصية ممارسة الإذعان للحق.

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٢/١٦٢) وبنحوه أخرجه الترمذي في (الصلاة) (٤٠٧).
(٢) البخاري في (الصلاة) (٢/٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

والحقيقة أن ما يقابل ضرب الأولاد على الصلاة هو النهي عن ضربهم على كسر الآنية، فقال ﷺ: (لا تغضبوا، ولا تسخطوا في كسر الآنية، فإنَّ فإن لها آجالا كآجال الإنس) (١) .. وهذا التقابل في غاية الأهمية .. ذلك لأنه ينشئ في نفس الطفل معياراً أساسياً للأهمية والقيمة في حياته.

فالعبادة أهم ما يمكن أن يكون في حياة الطفل أما الأمور المادية الدنيوية، فلا يُضرب عليها، فينشأ الشخص وقد ترتبت في حياته الأمور حسب أهميتها.

ولكن الصلاة بالنسبة للطفل يجب أن تكون في المسجد وفي هذا قيمة تربوية عظيمة، نجدها بداية في تقوية الإحساس بالرجولة حيث يخالط الرجال في المسجد، ولكنه لا يتجاوز بهذا الإحساس من هم أكبر منه، حيث يعرف مكانه بينهم من خلال ترتيب الصفوف، فهو يرى صف الرجال ثم الأطفال.

وعندما يكبر ويتقبله المصلون الرجال في صفوفهم فإن هذه الخطوة ستكون أعظم موقف في حياته التربوية، حيث يشعر بذاته ورجولته من خلال عبادته ومسجده.

وعندما يشارك الرجال في مجلس العلم .. ويفتح الله عليه بفهم أو كلام، يشعر أن علاقته بمن يسمعه ممن هو أكبر منه سناً، علاقة رحمة وتقدير، وأن ترتيب الصفوف لا يعني الامتهان أو التحقير لأنهم وهم يرجعون به إلى صفوف الأطفال .. هم أنفسهم يسمعون له، ويفرحون بفهمه ويقرون بصوابه.

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وهو مثل المؤمن .. حدثوني ما هي ؟!، قال عبد الله: فوقع الناس في شجر البوادي .. ووقع في نفسي أنها النخلة، فقال النبي ﷺ: هي النخلة !، فاستحييت أن أقول. قال عبد الله: فحدثت عمر بالذي وقع في نفسي فقال: لأن تكون قلتها أحب إلي من أن يكون لي كذا وكذا (٢).

(١) نسبه السخاوي لأبي موسى المديني، وضعفه، لكنه ذكر أن له شواهد عند الديلمي.
(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني.

كما أنه عندما يجلس في مجلس علم فإنه يمارس تحصيل العلم بإرادته ورغبته فيحب العلم، ويسعى إليه .. ويمتد من خلال هذه الإرادة والرغبة والحب إلى جميع مجالات العلوم النافعة .

وعندما يحفظ القرآن والعلم بسهولة ويسر لأنه في بداية عمره وكمال طاقته الذهنية، فإنه يظل واثقاً بعقليته وذاكرته وذهنه طوال عمره .

وهذا أبو هريرة - رضي الله عنه - يلتقي بغلام فيظنه مثل الغلمان، حتى يكتشف فيه الرجولة، فيتعامل معه معاملة الرجال، وفي المسجد كانت التجربة .. وكان الدرس: عن أبي أيوب عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: دخلت معه المسجد يوم الجمعة، فرأى غلاماً، فقال: يا غلام اذهب العب، قال: إنما جئت إلى المسجد، قال: يا غلام اذهب العب، قال: إنما جئت إلى المسجد . قال: فتقعد حتى يخرج الإمام، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الملائكة تجيء يوم الجمعة، فتقعد على أبواب المسجد، فيكتبون السابق والثاني والثالث، والناس على منازلهم حتى يخرج الإمام، فإذا خرج الإمام طويت الصحف) (١).

رابعاً: المعاملة

وتحدد - هنا - الكيفية الصحيحة للتعامل مع الأولاد، والمدخل إلى هذا التعامل هو الجانب العاطفي لهم؛ لأن الطفل لا يشعر بعلاقته بغيره إلا من خلال إحساسه بحياته وظروفه.

وهذا موقف إعجازيٌ لرسول الله ﷺ تلتقي فيه أعلى درجات الهِمّة في الدعوة مع أقوى درجات الرحمة بالصغار، وهو الوارد في حديث أنس ابن مالك، قال:

كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاس خُلُقًا، وَكَانَ لي أَخٌ يُقَالُ لَهُ أَبُو عُمَيْرٍ .. كَانَ فَطِيمًا .. فَكَانَ إِذَا جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَرَآهُ قَالَ: «أَبَا عُمَيْرٍ! مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟» قَالَ: فَكَانَ يَلْعَبُ بِهِ (٢).

(١) رواه أحمد.
(٢) متفق عليه، والنُّغَيْر: تصغير نغر، وهو طائر يشبه العصفور، أحمر المنقار.

وكأن عصفور الغلام كان يشغل رسول الله ﷺ وهو في أخطر حالات الانشغال ..!

فلابد أن يشعر هذا الغلام أنه ليس على هامش الحياة.. وأنه في صلب المجتمع، بل وقمة الاهتمام به، لأنه اهتمام رسول الله وهو في أهم المهام .. هكذا يشعر أبناؤنا بذاوتهم.

ولم يكن أمر بسيط أن يعلق رسول الله ﷺ ثبوت صفة الخيرية للأمة على العلاقة العاطفية بين الرجال والأبناء حيث يقول: (ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا) (٢).

ويتمم أساس التعامل.. أساس الآداب.. وأهمه: آداب السلام على الغلمان.

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ مَرَّ على غلمان فسلَّم عليهم، وفي رواية: (فمر على صبيان فسلم عليهم) (٣).

وابتداءً بالسلام، نبلغ الحد النهائي في الحق الاجتماعي للأولاد، ويمثل هذا الحق .. هذا الحديث: عن سهل بن سعد رضي الله عنه: (أن رسول الله عليه وسلم أتي بشراب فشرب منه - وعن يمينه غلام وعن يساره الأشياخ - فقال للغلام: أتأذن لي أن أعطي هؤلاء ؟ فقال الغلام: والله يا رسول الله لا أوثر بنصيبي منك أحداً، قال فتله رسول الله ﷺ في يده) (٤).

وكل ما سبق من أساسيات في العقيدة والعبادة والتعامل والآداب، لا يجب أن نتجاوز به الواقعية التامة في التعامل مع الأطفال ..

فالطفل هو الطفل.

لا مانع من شغله باللعب عن الجوع في الصيام .. فيكون اللعب معيناً له على الصبر، فلا نترك الطفل لحقيقة الصبر دون أن نخفف عنه الإحساس به ..

---

(١) رواه الترمذي بسند صحيح، انظر صحيح الجامع (٦٥٤٠)، وفي رواية أحمد: (ليس من أمتي من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا).
(٢) رواه الترمذي بسند صحيح.
(٣) متفق عليه.

ولكننا حين نضع له اللعب، فإننا لا نخرج بها عن غايتنا التربوية فيه، فاللعب له أحكام، كما قال رسول الله ﷺ: (كل شيء يلهو به ابن آدم فهو باطل إلا ثلاثة، رمية عن قوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته أهله، فإنهن من الحق) (١).

قد يكون لعب الأطفال من جنس اللهو الذي يلهو به الكبار، فيكون لعب الذكور كله متجه نحو تحقيق خصائص الرجولة، أما لعب الإناث فإنه يكون متجهاً نحو تحقيق خصائص الأنوثة فيهن .. وهذا هو حق اللهو، غير أن التربية لها بداية زمنية سابقة على كل هذه الأساسيات.

وهذه البداية تبدأ مع الولادة والرضاعة ..

فمنذ لحظة الولادة التي يكون فيها الآذان أول ما يطرق سمعه ..

ومروراً بالعقيقة .. التي يسمى فيها الطفل ويصير له نصيب من اسمه، ويُقَص فيها من شعره، ويُتصدَّق بوزنه ذهباً أو فضة، فتحدد علاقته بالذهب من خلال الشعر المتساقط منه، ليبقى المسلم طول عمره بعد ذلك مالكاً للمادة وسيداً عليها، لا تعلوه أي قيمة مادية مهما بلغت ..

ويذبح له فيها الذبيحة .. تكريماً له ووليمة للمسلمين المجتمعين من أجله الفرحين به، وذلك عندما يرى كل طفل ما يصنع للمولود، فيعرف أنه قد صنع له مثلما يرى.

والتحديد المنهجي لمكانة الذرية في تصور الدعوة هو الذي يحقق أكبر أثر لهذه الذرية على الواقع الجاهلي ، وقد حدد لنا رسول الله ﷺ هذه المكانة عندما أراد أن يجعل من الشيطان لعبة لأولاد المدينة كما في الحديث الذي رواه مسلم والنسائي عن أبي الدرداء قال: (قام رسول الله ﷺ يصلي فسمعناه يقول: أعوذ بالله منك، ثم قال ألعنك بلعنة الله ثلاثاً، ثم بسط يده كأنه يتناول شيئاً، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله قد سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجة والحاكم والبيهقي، وسنده صحيح.

نسمعك تقوله من قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك، فقال إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي فقلت أعوذ بالله منك فلم يستأخر ثم قلت ذلك فلم يستأخر ثم أردت أخذه فلولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة) (١).

وكان مضمون الموقف هو أن (الأولاد) عندما يكونوا أولاد (المدينة) وهي منطلق الدعوة الزماني والمكاني من بدايتها ومعقلها الأخير حتى نهايتها مع نهاية الزمان .. عندما يكون الأولاد أولاد هذه المدينة يصير إبليس هو اللعبة !

خامساً: قوة الشخصية:

قوة الشخصية القادرة على مواجهة الحياة دون ضعف، من خلال تكوين هذه الشخصية بطاعة الله والإيمان بالقدر، ولذلك يقول الرسول ﷺ لابن عباس:

(يا غلام ! احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذ سألت فأسال الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف) (٢).

وهذا الحديث له صلة مباشرة بطبيعة الدعوة من حيث أن الذي يمارس من هذه الدعوة يجب أن يكون مؤمناً بقضاء الله وقدره إيماناً قوياً ثابتاً.

سادساً: الممارسة الفعلية للدعوة:

وهذه كانت نصيحة لقمان لابنه، وقيمة هذه النصيحة هي تنمية الإحساس بأي خطأ، والقدرة على الدعوة إلى كل خير حفاظاً على شخصية الابن: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (لقمان: ١٧).

(١) أخرجه مسلم (٥٤٢)، والنسائي(١٢١٥) . وأخرجه أيضًا : البيهقى (٣٢٣٨) .
(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد في مسنده (١/٢٩٣)، والحاكم (٣/٥٤١) كلهم من حديث ابن عباس.

وفي ذكر تلك النصيحة بصيغة توجيه من الأب إلى الابن محاط بمشاعر الأبوة في مجال الدعوة، حيث إن حرص الدعاة على الناس لا يقل عن حرص الأب على ابنه، ولذلك يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: (فقد أتاه الله الحكمة وهو يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف)، وهكذا الدعاة يشفقون ويحبون ويمنحون أفضل ما يعرفون. وهناك في مسألة الذرية أمر خطير، وهو أن الذرية تنشئ في الإنسان إحساس العيْلة، وهذا الإحساس يجب معالجته، إذ إنه من الضروري أن يسعى المسلم الداعية إلى قوت عياله مثلما يسعى تماماً في مصلحة الدعوة ، لأن توافر القوت سيجعل واقع الداعية الاجتماعي منطلقاً حراً، ولهذا كان من الإعداد العملي للرسول ﷺ لتحمُّل الرسالة قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى، وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى، وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾ (الضحى: ٦-٨) ، لأن احتياج الإنسان لقوت عياله سيتولد عنه إحساس بالذل يتنافى مع طبيعة الدعوة والاستعلاء بالإيمان.

على أنه من المهم أيضاً أن يكون هذا السعي محدوداً بالاحتياج الفعلي، حتى لا يتعدى هذا السعي تلك الحدود، فيتحول إلى انشغال بالمال والأهل مثلما قال المنافقون: ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ (الفتح: ١١).

ورسول الله ﷺ يعطينا المقياس الذي نفصل به بين السعي الضروري والانشغال الخطير، فيقول: (من أصبح معافىً في جسده، آمناً في سِربه، يملك قوت يومه فقد ملك الدنيا بما عليها)(١).

وبعد أن لمسنا الآثار الضخمة الطيبة للبيت في واقع الدعوة فكراً وحركة ..

ترتفع في نفوسنا قيمة البيت .. ارتفاعاً يحقق الإحساس بضرورة حمايته، وينشئ شعور الحذر من تخريبه ..

(١) حسن لغيره: أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٤٦) وابن ماجه (٤١٤١)، والحميدي رقم (٤٣٩).

أبناء الدعاة .. مسألة في التربية

وفي موضوع الذرية، تعرض لنا مسألة تربوية هامة، هي أبناء الدعاة ..

وهي من أخطر مسائل الدعوة، لأن هؤلاء الأبناء هم الامتداد الإنساني للدعوة، وهذه المسألة التربوية لها عدة أبعاد:

- الأب الداعية.
- أبناء الداعية.
- مقتضيات الدعوة.

الأب الداعية

والداعية إلى الله شخصية قوية مؤثرة بطبيعتها، ولا بد أن يكون لهذه الصفة أثر في تربية الأبناء، والجانب الإيجابي لهذا التأثير هو القدرة على التعامل مع الأبناء بهذه الطبيعة المؤثرة.

أما الجانب السلبي فهو طغيان هذا التأثير على الشخصية المتكونة للأبناء؛ حيث لا يجد الابن لنفسه وجودًا بجانب أبيه.

وهو الأمر الناتج عن يأس الابن من إمكانية مواجهة الأب أو حتى التفاهم معه؛ فيؤثِر السلامة بالانقياد..

ليكون الحق والواجب هو رأي الأب وتصرفاته..

وهي حالة لها أخطارها التربوية المحققة:

منها: سلبية الابن في التفكير ومواجهة المشاكل.

ومنها: الانفصال، والانفصام، والتمرد، والانشقاق في أقرب فرصة يراها الابن مواتية ويرى نفسه قادرا عليها، بحثا عن ذاته التي فقد الإحساس بها مع أبيه ..

وأمام هذه الأخطار تتحتم عدة واجبات:

- أن تفسر القوة في شخصية الأب على أنها من الإسلام: وليست صفة شخصية بحتة، وأنه مع كون موجبات الاقتداء به مضاعفة -كأب وكداعية- إلا أنه بشر يخطئ ويصيب.

- تحكيم الشرع في الأسرة: وعندما يكون الشرع هو الحكم بين جميع أفراد الأسرة -بما فيهم الأب- تصبح القوة في شخصية الأب محكومة بالشرع ومحفوظة من الطغيان، ويصبح قبول الأب الداعية للنصيحة من أبنائه أمر واجب؛ فيرى الأبناء في أنفسهم القدرة الكافية لإقامة علاقة حكيمة مع أبيهم.

- واجب أن يجعل الأب ابنه يفهم أنه الامتداد الطبيعي له: وأن أي ميزة قد يراها الابن في أبيه هي ميزة له؛ ليتحقق التوافق والتوحد بغير ذوبان لشخصية الابن في شخصية أبيه.

- واجب إسلام مشاعر الأب تجاه أبنائه: والأب الداعية بكل ميزاته الشخصية هو بشر قد يصيبه الضعف في علاقته بأبنائه، وقد يكون لضعفه نفس أثر قوته، فإذا كان لقوته أثر من الشدة على أبنائه فقد يكون لضعفه نفس الأثر؛ لأن الخوف من الركون إلى الدنيا والأبناء قد يتجه بالأب إلى عدم الجلوس إلى الأبناء وملاطفتهم حتى لا تنشأ عنده عاطفة تمنعه من القدرة على تركهم إذا اقتضت ضرورة الدعوة ذلك، وهو تصرف ناشئ عن تصور خاطئ للدعوة.

والصحيح: أن يؤمن الداعية أن القلوب بيد الله، وأن الله سبحانه الذي وضع الرحمة في قلب الأب لابنه هو سبحانه الذي يعينه على فراق أبنائه إذا اقتضت الدعوة ذلك؛ فيجب إسلام المشاعر لله في كل الأحوال.

والداعية شخصية حكيمة متوازنة قادرة على التعامل مع أعلى الاهتمامات وأشدها وأبسطها وأرقها.

فلا يتجاوز بعلوّ اهتماماته تعامله الصحيح مع أبنائه.. (١)

---

(١) يراجع موقف الرسول ﷺ من عصفور الغلام، وقد مر قبل قليل.

ومن أهم مقتضيات الحكمة والتوازن في التعامل مع الأبناء الحذر من الانشغال عن الأسرة والأبناء بمهام الدعوة، والنظر إليهم على أنهم أمرًا دنيويًا لا يجب أن يشغله.

والصواب: هو اعتبار الأبناء من أهم قضايا الدعوة وهو ما تبين من الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ) (١).

ولكن مقتضيات الدعوة تحتم إعطائها الاهتمام الواجب ، لذا يصير من الضروري معالجة أثر اهتمام الأب الداعية بالدعوة في نفس الأبناء، حتى لا يفهموا أن اهتمام أبيهم بأمر المسلمين على أنه تقصير في واجبه معهم، وفي هذا الإطار يجب أن يفهم الأبناء أن الاهتمام بأمر المسلمين واجب شرعي، (والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه) (٢) و ليس ذلك فقط؛ بل هو بركة ستصل إلى الأبناء ليصبح الأبناء علي يقين بأن الله يعين العبد الذي يهتم بأمر المسلمين على أداء واجبه نحو بيته وأسرته فييسر الله له القيام بجميع الواجبات.

ومن الأفضل أن يفسر الأب لأبنائه هذه الحقيقة القدرية بصورة عملية، فإذا أكرمه الله في أمر فسَّر ذلك لأبنائه بأن ذلك كان بعد عون قدَّمه لأحد إخوانه.

أبناء الداعية

والداعية في ظروف ومعاناة الاستضعاف وقلة استجابة الناس لدعوته يتجه نفسيًا إلى معالجة هذه المعاناة بالتركيز على أبنائه باعتبارهم في حالة استجابة طبيعية كأبناء؛ فيسعى الأب -وبكل قوته- في جعل أبنائه نموذجًا كاملًا لقضايا الدعوة دون اعتبار للمرحلة الزمنية التي يمر بها الأبناء..

(١) رواه أحمد بسند صحيح.
(٢) رواه مسلم.

فيحب أن يراه عالما مجاهدا فذًّا في أقل وقت ممكن؛ فيلقنه المصطلحات العلمية ويربيه التربية القاسية أملا في أن ينشأ التنشئة القوية..

وفي إطار هذا الخطأ تحدث أخطاء تربوية منها:

- عدم الموازنة بين مقتضيات الدعوة وحق الطفولة:

ومن هنا يجب مراعاة السن في تأصيل منهج الدعوة عند الأبناء؛ ولكن هذه المراعاة يجب أن تقوم على أساس أن الطفل في واقع الدعوة له سمات خاصة أهمها التميز الناشئ عن الخبرة المكتسبة من الحياة داخل بيت الدعاة، والعمر العقلي السابق للعمر الزمني لأبناء الدعاة يتطلب مستوى خاصًّا للتعامل.

ويجب توجيه الإخوة المحيطين ببيت الدعاة إلى ضرورة التعامل مع أبنائهم بالمستوى المطلوب؛ وحديث رسول الله لابن عباس هو الدليل؛ عن ابن عباس قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يومًا، فقال: (يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف) (١).

ولعل أول كلمات الحديث: (احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك)، وآخر الكلمات: (رفعت الأقلام وجفت الصحف) تدل على المستوى الذي يمكن أن تتعامل به مع الأبناء.

وفي إطار التربية الفكرية للأبناء يجب الإقرار بأن الأب يحب أن يرى الناسُ ابنَه متميزا؛ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَهِيَ مَثَلُ الْمُسْلِمِ، حَدِّثُونِي مَا هِيَ؟» فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَادِيَةِ، وَوَقَعَ فِي نفسي أَنَّهَا النَّخْلَةُ.

(١) رواه الترمذي بسند صحيح.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَاسْتَحْيَيْتُ. فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنَا بِهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هي النَّخْلَةُ». قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَحَدَّثْتُ أَبِي بِمَا وَقَعَ في نفسي، فَقَالَ: لأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لي كَذَا وَكَذَا) (١).

ولكن يجب الانتباه في ذلك إلى خطر الرياء والحد الفاصل بين الرياء والمباهاة بالابن وبين الفرح بما عليه الابن من الخير هو الإخلاص.

وفي إطار التوازن في التربية ومقتضيات الدعوة تأتي مسألة الترسيخ التربوي للمفاهيم وأهم مثال يخص أبناء الدعاة من تلك المفاهيم .. مفهوم المفاصلة

والتربية العقدية هي أساس المفاصلة التي تتحدد بها علاقة الابن بالمجتمع..

ويجب مراعاة عمر الابن عند محاولة ترسيخ مفهوم المفاصلة مع المجتمع بتقاليده الجاهلية.

وأنسب أسلوب لهذه المراعاة هو إنشاء إحساس المفاصلة من خلال حب الإخوة القريبين من الأبناء؛ حيث سيضعهم هذا الحب في حالة مقارنة تلقائية بين الناس الذين يقترب منهم أو يتعامل معهم لتكون المقارنة لصالح الإخوة وأخلاقها؛ فيثبت لديه الفرق بين هؤلاء وهؤلاء، فتنشأ عنده مشاعر المفاصلة بصورة نفسية سهلة وتتكون النظرة الشرعية للمجتمع باختصاص المقربين من الأب بصفة "أخ" .. والتفريق في ذلك بين الأخ.. و الجار.. والزميل

ومن هنا يجب التنبه إلى عدم ذكر الإخوة أمامه بسوء، وأن يخفي عنه أي تصرف غير مرضي قد يصدر عن أحد الإخوة.

كما يجب التنبيه على أن حل مشاكل الإخوة في بيت الداعية قد يعطي انطباعًا بأن هذا هو الوضع الطبيعي للإخوة؛ لذا يجب الحرص على أن يرى الابن نماذج وأمثلة صحيحة وطبيعية وبلا مشاكل حتى لا يفقد الأبناء ثقتهم في حياة الإخوة.

---

(١) مر تخريجه قبل قليل.

ومـن الحكمة في تحقيق المفاصلة تحديد علاقة الابـن بأصدقائه الذين يعايشهم في المجتمع..

فالمفاصلة لا تعني قطع كل صلات الابن بالمجتمع، بل لابد أن يكون له أصدقاء، والصواب أن يكون أبناء الإخوة الآخرين هم أول أصدقائه؛ لأنهم يعيشون ظروف واحدة؛ أما بالنسبة لغير أبناء الإخوة فيجب دخول الأب كطرف ثالث مع الأبناء وأصدقائهم..

مع مراعاة أن اختيار الابن للأصدقاء أول مظاهر الإحساس بالذات عند الابن؛ فيجب مراعاة ذلك في معالجة المسألة بإقرار حق الابن في اختيار أصدقائه بعد توضيح أهمية التزام الشرع في اختيار الأصدقاء مع متابعة تلك العلاقة واعتبار واقع المجتمع الذي يعيشه الأبناء من حيث التأثر به ومن حيث التعامل معه..

فيجب متابعة الابن لمعالجة أي أثر يحدثه المجتمع فيه، والانتباه لخطر إهمال هذه المتابعة.

ومن الخطأ منع الأب الداعية ابنَه من الاحتكاك بالمجتمع، حتى لا يعيش في أبراج صنعها لنفسه بخياله، حتى لا يصطدم بالواقع الحياتي الذي يجب أن يعيشه.

والقاعدة في معالجة مشكلة احتكاك الأبناء بالمجتمع هي التكوين الفكري والوجداني قبل الخروج إلى المجتمع ومواجهته.

وفي إطار إعداد الابن لمواجهة المجتمع تناقش مشكلة التسمية، فقد يتعلق الأب الداعية بشخصية أو كلمة قرآنية فينشأ في نفسه رغبة في تسمية أبنائه بمسميات تغذي هذا التعلق مثل أن يتعلق بشخص سيدنا يونس عليه السلام، فيسمي ابنه "ذا النون" مما يكون سببا في معاناة الولد مع قرنائه وهم يحاولون فهم اسم زميلهم في الوقت الذي كان من الممكن أن يسميه "يونس" وهذا المثل المضروب ومعاناة الابن منه حادث في الواقع فعلا.

والرسول ﷺ يعلمنا مراعاة الآثار الواقعية المترتبة على التسمية؛ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَتْ جُوَيْرِيَةُ اسْمُهَا بَرَّةَ فَحَوَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اسْمَهَا جُوَيْرِيَةَ، وَكَانَ يَكْرَهُ أَنْ يُقَالَ: خَرَجَ مِنْ عِنْدِ بَرَّةَ) (١).

والقاعدة في موضوع التسمية هي محاولة الاقتراب من التسميات القرآنية والسلفية، ولكن بدرجة فيها اعتبار رد فعل المحيطين بالابن لتنتشر هذه التسمية بصورة سهلة وآمنة.

مقتضيات الدعوة

والإحساس الطبيعي بالأب عند الابن أن أباه أعظم الناس:

روى الإمام البخاري (٣٦٧١) عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ: (قُلْتُ لأَبِي أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ أَبُو بَكْرٍ . قُلْتُ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ عُمَرُ . وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ عُثْمَانُ قُلْتُ ثُمَّ أَنْتَ قَالَ مَا أَنَا إِلاَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) .

هذا الإحساس يكون من الخطر معه أن يرى الابن أباه -وهو مثله الأعلى في المكانة- يهان ويُساق أمام عينه ويؤخذ من بيته فقد يحدث ذلك إحباطًا في نفسه يبقى معه وقتًا طويلا؛ لذا يتطلب الأمر من الزوجة تفهيم الأبناء - وبصورة مناسبة- معنى استعلاء الإيمان، وأن أباهم من هؤلاء المؤمنين المستعلين بإيمانهم، وأن من أخذوه هم الأذلاء.

كما يجب أن تعالج الزوجة إحساس الرغبة في الانتقام الذي ينشأ عند الابن عن هذا الموقف بحيث تبقي في نفسه نوعًا من الإحساس الذي يمكن ترجمته فيما بعد في صورة منهجية صحيحة دون أن يتحول هذا الإحساس إلى عقدة تعجزه أو أن يتبدد الإحساس دون الاستفادة منه.

وغالبا ما يكون اتجاه التربية بعد أي محنة شديدة هو اتجاه الأباء إلى الابتعاد بالأبناء عن مشاكل الدعوة وأخطارها، مكتفين بدورهم ظنا منهم أن ما كان

(١) رواه مسلم.

منهم سيرفع عن أبنائهم واجب الدعوة إلى دين الله، وهو اتجاه خاطئ وجزاؤه عند الله أن يحرم الأباء من قرة أعينهم بأبنائهم الذين بخلوا بهم على الدعوة

ومن الممكن كذلك أن يكون أثر المحنة هو محاولة الأبناء أنفسهم الابتعاد عن مجال الدعوة، ومن هنا يجب غرس الإحساس لديهم بمسئولية الدعوة..

وأن موقفهم ومسئوليتهم ليست تابعة لآبائهم ، ولكنها مسئولية مستقلة سيسأل عنها وحده أمام الله، مما يجعله قادرا علي مواجهة مثل هذه المواقف الخطيرة مثلما كان من فاطمة رضي الله عنها ..

عن عبد الله قال: (بينما رسول الله ﷺ ساجد وحوله ناس؛ إذ جاء عقبة بن أبي معيط بسلى جزور، فقذفه على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يرفع رأسه، فجاءت فاطمة فأخذته من ظهره ودعت على من صنع ذلك) (١).

كما يجب البحث عن أنسب الأساليب لتفسير المواقف والأحداث التي يعيشها الأبناء في واقع الدعوة؛ مثل أن يسأل الابن أمه عندما يقبض على أبيه: أين أبي؟ قد تكون الإجابة: مسافر أو في العمل، ولكن هناك إجابة أفضل وهي أن تقول له: هو في سبيل الله ..

فيترسخ المفهوم في ذهنه، ولا نكون مضطرين إلى شرح المفهوم بصورة لا تتناسب مع عمره، ولكن الإجابة ستجعل الابن يحتفظ بالمفهوم في نفسه وعقله إلى حين يكبر ويستطيع استيعابه بصورة عقلية مناسبة.

ومن الخطأ شكاية الأم أمام أبنائها من المعاناة التي تعانيها من غياب الأب؛ لأن ذلك سيعطي للابن مبرر التفادي المستقبلي لطريق الدعوة ..

لأن المعاناة التي يسمعها من أمه سيكون لها وقع ضخم على نفسيته باعتباره طفل صغير لا يتحمل بسهولة أن يرى أمه تبكي.. أو تقبل صدقة فيشعر بمهانة آخذ الصدقة ومن يعيش عليها..

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه.

ولذلك يجب أن يفهم الابن أن هذا هو الوضع الشرعي والطبيعي، وأن ما يريحه نفسيًا هو الشعور بأنه سيكون يومًا ما بجانب من يحتاج إلى مساعدته الاجتماعية كما يتقبلها هو الآن.

وغالبا ما يخفف أهل الداعية من وطأة الاستضعاف بسرد بطولات الأب مع أبنائهم، فيجب أن يكون السرد واقعيًا ومناسبًا للمرحلة التي يعيشها الابن حتى يستفيد منها الابن ولا يختل تصوره عن الواقع.

والأحاديث مع الأبناء عن بطولات الإخوة بصورة غير واقعية وقبل الوقت المناسب يجعل هذه البطولات في إحساس الابن مجرد خيالات ذهنية قد تدخله في حالة مرضية..

ولكن الصواب: أن يكون ذكر هذه البطولات في وقت يستطيع فيه الطفل استيعابها؛ لتكون حساباته لها بنفس الواقعية، ويتكون عنده الدافع إلى ممارستها بنفس الواقعية التي أحس واستوعب بها هذه البطولات ابتداء.

وفي إطار معايشة الأبناء للمحن تأتي مشكلة زواج بنات الداعية

فعندما تكبر ابنة أحد الدعاة ذوي التاريخ الخطير فإن هذا الخطر سيجعل زواجها صعبًا؛ لأن الناس ستخاف خطبتها والزواج منها حتى لا يصيبهم مكروه بسببها وسبب أبيها ..

عندئذ تكون هذه الفتاه في حاجة إلى الإحساس المستمر بقيمة الدعوة التي كانت موضوعًا لهذا الخطر الذي أصبح مانعًا أو مؤخرًا لزواجها..

وفي إطار معالجة هذه المشكلة يجب أن يكون تفكير الدعاة الآباء متجهًا في تزويج أبنائهم وبناتهم إلى معالجة هذه المشكلة بأن يكون الاختيار من مجال الدعوة بين الأبناء والبنات، ولكن بشرط ألا يتم الزواج لمجرد علاقة شخصية بين الآباء في مجال الدعوة، ولكن يجب أن يكون الاختيار طبيعيًا والقبول متحققا من الناحية النفسية والقلبية حتى يصير الزواج صحيحًا.

والحقيقة أن كل الموضوعات في هذا المجال يمكن تحديد أساس عام لمناقشتها؛ وهو تربية الأبناء على حب رسول الله ﷺ، وهذا الأساس ليس أساسًا عاطفيًّا بل تربويا وموضوعيا..

لأن هذا الحب سيجعل الابن يدرك أن اتجاه أبيه في الحياة هو اتجاه سيد الخلق، وأن اتجاه الأب الداعية له جذوره العظيمة ليس اتجاهًا غامضًا هامشيًّا..

وعندما يكون الانتماء لرسول الله ﷺ يكون العز الذي لا وهن ولا حزن معه في كل احتمالات وظروف الدعوة الصعبة..

وعندما يرى أباه يؤذى أمامه يتذكر ما حصل من الأذى لأفضل الخلق صلى الله عليه وسلم؛ فيتحمل نتائج هذا الموقف باطمئنان..

وعندما يطمئن إلى الاقتداء برسول الله ﷺ لا يكون لأي إنسان أي أثر على شخصيته ؛ فيتجاوز الابن خطر البحث عن مثلا إنسانيا له بعيدا عن شرع الله

وعندما يمتلئ قلب الابن بحب رسول الله ﷺ تتأصل نظرته إلى الناس، فيحب من يحب الرسول ويكره من لا يوقر الرسول، بل ويسعى في محاربة من يؤذي الرسول ويعادي شرعه ودينه، مثلما كان في غزوة بدر ..(١)

وبذلك نعلم أن حب أبناء الدعاة لرسول الله ﷺ .. قضية تربوية جامعة.

(١) تراجع قصة ولدي عفراء اللذين قتلا أبا جهل، وقد مرت قبل قليل.

حماية البيت

ولكن بيت الدعوة في الحقيقة .. بيت لا يعرفه الخراب .. لأنه يتكون ومعه أسباب حمايته، وما علينا إلا أن نفهم هذه الأسباب ونأخذ بها ..

وسنبدأ بذكر أسباب أصلية نتبعها بأسباب أخرى محددة من خلال النصوص القرآنية والأحاديث النبوية.

أما الأسباب الأصلية فهي الحب والرضا:

وعندما نذكر الناحية الوجدانية باعتبارها سبباً من أسباب حماية البيت، إنما يكون ذلك بنظرة معينة إلى تلك الناحية، فالمشاعر الزوجية هي قمة الإحساس بالحب الإنساني، وكذلك الحب بين الزوجين إطار محدد لا يعيش فيه إلا الزوجان، وهذا الفارق الجوهري بين الحب الإنساني عموماً وبين المشاعر الزوجية قد بينه النبي ﷺ بقوله من ناحية الزوجة: (إن للرجل في المرأة شيء، ليس إلا له) [1]، ومن ناحية الزوج لزوجته فقد وضح عندما سئل النبي ﷺ عن أحب الناس إليه فقال: (عائشة، قالوا: من الرجال؟، قال: أبوها) [2].

فالحب بين الزوجين هو أن يكون الزوج أحب الناس إلى زوجته، والزوجة أحب الناس إلى زوجها، وهذا يختلف عن مجرد الحب المتبادل الذي يكون بين الناس . حتى في الجنة تكون هذه حقيقة الحب بين الأزواج، ولهذا تُعبر زوجة المؤمن في الجنة فتقول: (والله ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك، ولا في الجنة شيء أحب إلي منك) [3].

(١) أخرجه ابن ماجه في الجنائز (١٥٩٠) ، والحاكم في (معرفة الصحابة) (١٦ - ٤/٦٢) ورواه أبو داود .
(٢) متفق عليه: البخاري في المناقب (٧/١٨)، ومسلم في (الفضائل) (٢٣٨٤) .
(٣) ابن كثير ط٣ص: ٢٨١.

والحب بين الزوجين ليس مجرد سبب لقيام العلاقة الزوجية فقط، بل إن العلاقة الزوجية تعتبر مصدراً ذاتياً لهذا الحب، وهذا معناه أن مشاعر الحب تزداد بين الزوجين باستمرار هذه العلاقة، وهذا هو الذي جعل الحب سبباً أصلياً لحماية العلاقة الزوجية، ولذلك جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ تطلب الطلاق من زوجها، ولم يكن قد تم بينهما فترة تكفي لتحقيق المودة القوية، فرفض رسول الله ﷺ هذا الطلاق قائلاً: (لا، حتى تذوقي عُسيْلته ويذوق عُسيلتك) [١].

وتذوُّق العسيلة – الذي هو الجماع – أقوى منابع الحب إذا كان سليماً في العلاقة الزوجية، وأخطر أسباب الفشل في تلك العلاقة إذا كان خطأ، بدليل أن رسول ﷺ أقر امرأة أخرى على الطلاق من زوجها لما فشلت بينهما المعاشرة الزوجية، إذ قالت المرأة: (يا رسول الله ! إن فلاناً لا أعيب عليه خلقاً ولا ديناً، ولكن أكره الكفر بعد الإيمان)، وفي رواية أخرى: عللت طلب الطلاق مباشرة بفشل المعاشرة، ولما كان الأمر بهذه الخطورة كان لابد من الاهتمام بالمعاشرة الزوجية، غير أن الاهتمام يجب أن يرتكز على وصايا النبي ﷺ في هذا الأمر وأهمها:

أولاً: أن يكون الجماع في جو عاطفي يملؤه الحب والانسجام، لقوله ﷺ: (لا يضرب أحدكم زوجته ضرب الأَمَة في أول النهار حتى يأتي آخر الليل فيضاجعها) [٢].

وكما يجب أن يسبق ويلازم الجماع جو عاطفي وجداني، وهو مفهوم الحديث، فإن هذه العاطفة وذلك الوجدان يجب أن تبقيا دائماً حتى وإن لم يكن هناك جماع، وهذا حديث عائشة الذي تصف فيه معاملة رسول الله ﷺ وهو في حال حيضها، حيث لا يكون جماع، إذ تقول (كنت أتعرق العرق وأنا حائض فأعطيه النبي ﷺ فيضع فمه في الموضع الذي وضعت فمي فيه، وأشرب الشراب فأناوله، فيضع فمه الذي كنت أشرب منه [٣].

(١) متفق عليه: البخاري في (اللباس) (١٠/٢٦٤) ومسلم (١٤٣٣) من حديث عائشة .
(٢) متفق عليه: البخاري (٨/٧٥٥) ومسلم (٢٨٥٥) عن عبد الله بن زمعة .
(٣) أخرجه مسلم (٣٠٠) ، ولعل هذه المعاملة الراقية هي الصورة المقابلة لمعاملة اليهود للحائض حيث لا يؤاكلونها ولا يشاربونها ولا يبيتون معها في مكان واحد.

ونواصل ذكر وصايا النبي ﷺ في الجماع ..

ثانياً: أن يتم التزيُّن، فيجب أن تكون المرأة حريصة على أن يراها زوجها جميلة، فمن صفات المرأة الصالحة: (إذا نظرت إليها سرتك) (١)، وكان النبي ﷺ يبعث عند عودته بالجيش من يخبر أهل المدينة: (حتى تمتشط الشعثاء وتستحد المغيبة) (٢)، وكان الرسول ﷺ يوصي الصحابة بالا يدخلوا على أهلهم ليلاً، إذ جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً حتى لا يفاجئهم دون إستعداد منهم للقائه، وكان الصحابي(٣) يقول: (كنا نتزين لنسائنا كما كانت نساؤنا تتزينّ لنا).

ثالثاً: وكذلك التطيب بدليل أن الرسول ﷺ كان دائماً يمس طيباً، ويعتني بالرائحة، وخصوصاً رائحة الفم، حتى أن نساء الرسول ﷺ لما غرن من زينب بنت جحش، لأن الرسول ﷺ كان يأكل عندها عسلاً اتفقن جميعاً على أن يقلن للرسول ﷺ: (رائحة فمك مغافير) (٤) فاغتمَّ النبي ﷺ بذلك حتى حرم على نفسه العسل، ونزل القرآن ينهاه عن التحريم) (٥).

رابعاً: كما تستحب المداعبة بدليل قول الرسول ﷺ لجابر ابن عبد الله: (أما تزوجتها بكراً تلاعبها وتلاعبك) (٦).

خامساً: كما تجب مراعاة التسمية، بدليل قول الرسول ﷺ: إذا أتى أحدكم أهله فسمي الله، وقال: اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فقضي بينهما ولد، لا يضره الشيطان) (٧).

---

(١) سبق تخريجه (ص:٣٦).
(٢) البخاري في (النكاح) من حديث جابر رضي الله عنه . جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً، وفي رواية ليلا يتخونهم .
(٣) القائل: عبد الله بن عباس أخرجه ابن جرير (٤/٥٣٢) موقوفاً عليه .
(٤) نبات له رائحة كريهة .
(٥) البخاري في (النكاح) (٩/٣٧٤) و مسلم (١٤٧٤) .
(٦) متفق عليه: البخاري في (النكاح) عن جابر، ومسلم في الرضاع أيضاً رقم (١٤٦٦) باب (١٥) .
(٧) البخاري عن ابن عباس (٩/٢٢٨) ومسلم عنه أيضاً و (١٢٣٤) .

و لعلنا نلاحظ أن الأمر إلى الزوج باعتبار أن الزوج هو الفاعل، ومن السنة الجماع عند الرغبة مباشرة، لأن الرسول ﷺ يبين أنه: (إذا رأى أحدكم امرأة - أي رؤيا المفاجئة - فليأت أهله، فإن ذلك يرد ما في نفسه) (١).

ويقول الله - سبحانه وتعالى-: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ البقرة: ٢٢٣)، وذلك لتفادي خطورة كبت الرغبة (٢).

سادساً: أن لا يتركها بعد أن يقضي حاجته منها قبل أن تقضي زوجته حاجتها أيضاً، لما روي أن النبي ﷺ قال: (إذا جامع أحدكم زوجته، فليصدُقها (يعني فليجامعها بصدق) (٣) فإن قضى حاجته قبل أن تقضي حاجتها فليصبر حتى تقضي حاجتها) (٤).

و يفضل الاعتدال بمعني أن تكون الرغبة طبيعية، وأن يكون الجماع في حدود القدرة الإنسانية بلا إرهاق زائد، ولا يدخل في هذا أي عامل غير تلك الرغبة الطبيعية.

ومع تذوق العسيلة، ثم الحمل وانتظار الولد، ثم الولادة يقوى الحب حتى تصبح المشاعر في قمة التآلف، ويتحقق التوافق التام في التفكير والإحساس بين الزوجين، ونراها كما وصفها القرآن تصل إلى حد دعاء الزوجين بدعاء واحد ومشاعر واحدة ولسان واحد. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٨٩).

و لعل وصول العلاقة الزوجية إلى ذلك الوجدان عند الولادة من أهم أسباب الحكم الشرعي الذي يقضي بتحرير الجارية إذا ولدت من سيدها، لأن هذه العلاقة الراقية وجدانياً لا يتفق معها أن تظل (أم الولد) رقيقاً يُباع ويُشترى.

---

(١) أخرجه مسلم في النكاح رقم (١٤٠٣) من حديث جابر.
(٢) يراجع كتاب الطب النبوي لابن القيم (فوائد الجماع عند الرغبة مباشرة).
(٣) أخرجه عبد الرزاق (٦/١٩٤) قال عنه الهيثمي (٤/٢٩٥) فيه راو لم يسم وبقية رجاله ثقات.
(٤) حتى تشعر الزوجة برغبة الزوج الصادقة والحقيقة فيها.

والتعبير عن مشاعر الحب من الأمور التي تزيده وتنعشه، ولذلك كان من وصايا الرسول ﷺ لنا قوله: (إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه) (١) . أما عندما يكون بين الزوجين فيجب أن يكون التعبير صفة دائمة وبكل الأساليب، وهذا أحد أساليب النبي ﷺ مع عائشة، إذ يقول لها: (إني أعرف عندما تكوني غاضبة مني تقولي: ورب إبراهيم، وعندما تكوني راضية عني تقولي: ورب محمد)، وتبادله عائشة مشاعر الاهتمام الدقيق بمشاعرها، فتقول: (والله يا رسول الله لا أهجر إلا اسمك) (٢).

ولا حرج من الإعلان عن الحب بين الزوجين في الواقع المحيط بهما، وقد مر بنا الحديث الذي سألت فيه الصحابة رسول الله ﷺ عن أحب الناس إليه قال: (عائشة، قالوا: من الرجال؟ قال أبوها) (٣)، ولعلنا نلاحظ أن تقرير رسول الله ﷺ بأن عائشة أحب الناس إليه كان بلا حرج، كما نلاحظ أن الرسول ﷺ لما ذكر أبا بكر باعتباره أحب الناس إليه من الرجال ذكره بصفته أباً لعائشة فقال: أبوها.

وقد كان حب الرسول ﷺ معروفاً لدى الصحابة إلى درجة اعتبار هذا الحب مقياساً لحب الخير كما جاء في الحديث: عن أم سلمة رضى الله عنها أن نساء النبي ﷺ كلمنها لتكلم النبي ﷺ أن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، وتقول له: إنا نحب الخير كما تحب عائشة، فكلمته فلم يجيبها، فلما دار عليها كلمته أيضاً، فلم يجبها، وقلنا: ما رد عليك؟ قالت: لم يجيبني . قلنا: لا تدعيه حتى يرد عليك، أو تنظرين ما يقول فلما دار عليها كلمته ، فقال: (لا تؤذوني في عائشة، فإنه لم ينزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن إلا في لحاف عائشة) (٤).

(١) أخرجه الترمذي (٧/٧١ تحفة) وأبو داود (١٤/٢٩) وسنده صحيح.
(٢) متفق عليه: البخاري في النكاح (٩/٣١٠)، ومسلم (٢٥٣/ ١٥) من حديث عائشة باختلاف في اللفظ .
(٣) متفق عليه وسبق تخريجه .
(٤) رواه النسائي في كتاب عشرة النساء برقم (٣٦٨٩).

وأما أخطر الأمور على مشاعر الحب التي يجب أن ننتبه إليها فهو استغلال تلك المشاعر ولو بأدنى مدى، وسنذكر موقفاً وقفته السيدة عائشة مع رسول الله ﷺ ارتكزت فيه على حبه لها، فغضب منها، فقد كان الرسول ﷺ يحب أن يمسك الجمل الذي يحمل هودج السيدة عائشة . وقد كانت كل زوجات الرسول ﷺ تعلم ذلك، فقالت لها حفصة ذات مرة: هلا تبادلنا الهودج، فركبتي أنتي هودجي، وركبت أنا هودجك، فننظر ماذا يفعل رسول الله؟، فقالت عائشة: أفعل، فلما ركبت حفصة مكان عائشة وسحب الرسول ﷺ الجمل على أن عائشة في الهودج نظر فوجد حفصة، فغضب، وعُرف ذلك في وجهه إلى حد أن قالت عائشة: (رب سلّط عليّ عقرباً أو حية تلدغني)، وذلك بعد أن وضعت رجليها في الأذخر الذي تكثر فيه الهوام، فدعت على نفسها قبل أن يقول لها الرسول: لماذا فعلت ذلك؟[1]، ولعلنا نلاحظ أن حفصة دخلت إلى عائشة من الناحية التي تحب عائشة تأكيدها دائماً، وهي حب رسول الله ﷺ لها.

ومع الحب يأتي الرضا، فالزوجة عندما تكون راضية عن زوجها وعيشتها فإن هذا الرضا يمثل في حماية البيت طاقة الدفاع الكامل ، وإن كانت غير راضية فستخرب بيتها بيدها، ولذلك نجد أن سيدنا إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - عندما زار ابنه إسماعيل وجده قد تزوج، فسأل زوجته عن الحال والمعيشة، فقالت: الحال في ضيق، فرأى إبراهيم أنها غير راضية، فقال لها: إذا جاء إسماعيل فأقرئيه مني السلام، واطلبي منه أن يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل أخبرته بما حدث، فقال لها: أنت العتبة، الحقي بأهلك وطلقها[2].

فنجد في هذا الحديث أن إبراهيم سمع قول المرأة فأمر إسماعيل بأن يطلقها دون أن يتبين حالتها فعلاً، لأن المسألة لا تتعلق بحالة الزوجة الفعلية، بل تتعلق بإحساسها بحالها ومعيشتها، وقد كان هذا الإحساس وحده كافياً لأن يحكم

(١) أخرجه البخاري في (النكاح) (٩/٣١٠) باب (٩٧) من حديث القاسم عن عائشة .
(٢) البخاري في (الأنبياء) (٣٩٦ - ٦/٣٩٧) من حديث ابن عباس .

إبراهيم الخليل بطلاقها، إذا إنه لا أمان للمرأة التي لا تشعر باستقرارها وسعادتها مع زوجها في بيته، كما أن إسماعيل لم يتردد في تنفيذ ما طلبه إبراهيم، لأنه يعلم أن هذا هو الحق.

و لكن كيف يتحقق رضا الزوجة ؟

والإجابة باختصار أن رضا الزوجة يتحقق بأن تجد المرأة طُمأنينة نفسها وجمال أنوثتها مع زوجها وفي بيتها، وبأن يسد الرجل احتياجاتها المادية ويحقق لها رغباتها النفسية، وقد قال النبي ﷺ حديثاً يعطي الإشارة الحقيقية إلى خطر المرأة عندما تحتاج، فقال: (كان فيمن كان قبلكم ثلاثة نفر كانوا في سفر فأمطرت عليهم السماء، فقالوا نختبئ في هذا الكهف فتدحرجت عليهم صخرة، فسدت عليهم الكهف، فقالوا تعالوا ندعو الله بصالح أعمالنا عسى أن يفرج عنا، .. فكان دعاء أحد الثلاثة هو موضع الاستشهاد بالقصة .. قال:

اللهم إنك تعلم أنه كانت لي ابنة عم، وكنت أحبها أشد ما يحب الرجال النساء فراودتها عن نفسها، فأبت، فاحتاجت إليَّ، فجاءتني، فراودتها عن نفسها، فرضيت حتى إذا كنت بين شُعبها الأربع قالت: يا هذا اتق الله ولا تفُض الخاتم إلا بحقه، فقمت عنها وأنا أشد ما أكون حباً لها، اللهم إن كنتَ تعلم أني قد فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرّج عنا ما نحن فيه، فتدحرجت الصخرة) (١).

وواضح من الحديث أن هذه المرأة لم يكن عندها أي رغبة في الانحراف بدليل أنها رفضت في المرة الأولى، وذكَّرته بتقوى الله في المرة الثانية، وهذا معناه أن ذهابها إليه كان قهراً بسبب الاحتياج، وهذه هي حقيقة الخطر عند احتياج المرأة، إنها تخضع وتضعف أمام الانحراف دون أدنى رغبة فيه، ويترتب على هذا أن تمارس المرأة الانحراف بغير ضعف أمام شهوتها بل بالضعف أمام احتياجها المادي.

(١) البخاري في الإجارة (٤/٤٤٩)، ومسلم في (الذكر و الدعاء) رقم (٢٧٤٣) .

و يذكرنا هذا الحديث بقيمة قول عمر: (لئن عشت في العام المقبل لأجعلنَّ لأرامل الكوفة جُعلاً) لنعلم أن الذي كان يريده عمر هو تفادي خطر الاحتياج عند المرأة في مكان أخبر الرسول ﷺ أنَّ منه ستخرج الفتن (١)، ومن أجل خطورة احتياج المرأة نجد أن النبي ﷺ يجيز للمرأة أن تأخذ من مال زوجها دون علمه وبقدر حاجتها إذا كان بخيلاً، فقد جاءته هند - زوجة أبي سفيان - وقالت: إن أبا سفيان رجل مسيك، فهل يجوز لي أن آخُذ من ماله دون علمه ؟، فأذن لها النبي بقدر حاجتها) (٢).

و الواقع أن المنع من الأهل هو في الحقيقة اغتصاب لا يرضاه الله، إذ إن الزوج عندما يُرزق إنما يرزق أهله، بدليل قول النبي ﷺ: (إنما تُنصرون وتُرزقون بضعفائكم) (٣).

ومن هنا كان قول النبي ﷺ: (دينار أنفقتهَ في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجراً الدينار الذي أنفقته على أهلك) (٤)، ولعل الصورة التي التقطها قول رسول الله ﷺ: (حتى اللقمة التي تضعها في فم امرأتك لك بها صدقة) (٥) - توضح لنا كيف تكون الكرامة والوجدان في سد احتياج المرأة.

والحقيقة أن سعي الزوج لسد احتياج الزوجة يمثل عند المرأة دليل اهتمام بها، وهذا الجانب النفسي لا يقل شأناً عن الجانب المادي بل يزيد، وهذا الجانب يتحقق عند المرأة إذا أحست أن الزوج يبلغ أقصى ما في وسعه من أجلها، أو الاعتذار الكريم عن تحقيق رغبة لها لم يتمكن من تحقيقها، وهذا هو المقصود بالقول الميسور في قول الله -عز وجل -: (وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن

(١) قال رسول الله ﷺ (إن الفتن ستخرج من المشرق وأشار إلَى الكوفة وقال: منها يخرج قرن الشيطان) أخرجه البخاري (١٣/٤٥) في الفتن، ومسلم (٢٩٠٥) عن ابن عمر.

(٢) متفق عليه: البخاري (٩/٥٠٧)، ومسلم رقم (١٧١٤).

(٣) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وأبو داود، ورواه البخاري (٦/٨٨) بلفظ (هل تنصرون إلا بضعفائكم).

(٤) رواه مسلم في الزكاة (٣٩)، وأحمد (٢/٧٣،٤٧٢ح) .

(٥) البخاري في (الوصايا) (٥/٣٦٣) ، وأصله في مسلم في الوصية (١٦٢٨) من حديث سعد أيضاً .

رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا) (الإسراء:٢٨)، أي إذا سالك أقاربك ومن أمرناك بإعطائهم وليس عندك شيء وأعرضت عنهم لفقد النفقة - (فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا) أي عدهم وعداً بسهولة ولين إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله، هكذا فسر قوله: (فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا) بالوعد: مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغير واحد (١).

وبذلك يمكن الاهتداء بهذا التوجيه القرآني في التعامل مع الزوجة للاستفادة من حكمته.

وعندما تكون للزوجة رغبة نفسية ليس لها جانب مادي فيجب عدم الاستهانة بالاستجابة إليها، فعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: (دعاني رسول الله ﷺ والحبشة يلعبون بحرابهم في المسجد في يوم عيد، فقال: يا حُميراء (تصغير الحمراء يريد البيضاء) أتحبين أن تنظري إليهم؟، فقالت: نعم، فأقامني وراءه، فطأطأ إلى منكبيه، لأنظر إليهم، فوضعت ذقني على عاتقه، وأسندت وجهي إلى خده، فنظرت من فوق منكبيه - وفي رواية من أذنه وعاتقه - وهو يقول: دونكم يا بني أرفدة حتى شبعت) (٢)، وبذلك نخرج بقاعدة مهمة في الاستجابة لرغبة الزوجة، فإذا كانت الرغبة مادية فيجب أن يكون تحقيقها بقدر الإشباع، وبهذه القاعدة لا نتجاوز الرغبات المادية الفعلية، ولا نقصر في تحقيقها نفسياً، وهذا هو عين الرضا.

ومن أهم الأمور التي تحقق للمرأة إحساسها مع زوجها ورضاها عن بيتها هو ألا ترى زوجها يعيبها في تصرفاتها ووظيفتها كزوجة، وعلى هذا يجب على كل زوج أن يتخلَّق بأخلاق الرسول ﷺ في هذه الناحية، إذ تقول السيدة عائشة عن الطعام: (ما عاب رسول الله ﷺ طعاماً قط، إن اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه) (٣).

---

(١) ابن كثير ص ٦٥: ٦٧.
(٢) البخاري في (العيدين)، ومسلم في (الصلاة)، (٨٩٢) من حديث عائشة رضي الله عنها .
(٣) متفق عليه: البخاري في (الأطعمة) (٩/٥٤٧)، ومسلم (٢٠٦٤) ، عن أبي هريرة .

وعن جابر - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه سأل أهله الأُدم فقالوا: ما عندنا إلا الخل، فأخذ يقول: (نِعم الأدم الخل) (١).

وكذلك لا ترى الزوجة زوجها يعيبها في شكلها ومظهرها، ولذلك نهى النبي ﷺ عن أن يقبّح الرجل زوجته فيقول لها: قبَّحك الله.

كما يجب على الرجل أن يستجيب لطبيعة المرأة التي لا يمكن أن تتغير فيها مثل طبيعة حب المحادثة التي تعتبر من أبرز طبائع المرأة، فيتحتم على الرجل سماع حديث زوجته، وأن يُظهر تجاوباً واهتماماً وهذا حديث لعائشة سمعه رسول الله ﷺ منها استجابة لطبيعتها:

روى الإمام البخاري قال: حدثنا هشام بن عروة عن عبد الله بن عروة عن عروة عن عائشة قالت: (جَلَسَ إِحْدَى عَشْرَةَ امْرَأَةً ، فَتَعَاهَدْنَ وَتَعَاقَدْنَ أَنْ لاَ يَكْتُمْنَ مِنْ أَخْبَارِ أَزْوَاجِهِنَّ شَيْئًا .

قَالَتِ الأُولَى: زَوْجِي لَحْمُ جَمَلٍ ، غَثٌّ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ ، لاَ سَهْلٍ فَيُرْتَقَى ، وَلاَ سَمِينٍ فَيُنْتَقَلُ .

قَالَتِ الثَّانِيَةُ: زَوْجِى لاَ أَبُثُّ خَبَرَهُ ، إِنِّى أَخَافُ أَنْ لاَ أَذَرَهُ ، إِنْ أَذْكُرْهُ أَذْكُرْ عُجَرَهُ وَبُجَرَهُ .

قَالَتِ الثَّالِثَةُ: زَوْجِى الْعَشَنَّقُ ، إِنْ أَنْطِقْ أُطَلَّقْ وَإِنْ أَسْكُتْ أُعَلَّقْ .

قَالَتِ الرَّابِعَةُ: زَوْجِى كَلَيْلِ تِهَامَةَ ، لاَ حَرٌّ ، وَلاَ قُرٌّ ، وَلاَ مَخَافَةَ ، وَلاَ سَآمَةَ .

قَالَتِ الْخَامِسَةُ: زَوْجِى إِنْ دَخَلَ فَهِدَ ، وَإِنْ خَرَجَ أَسِدَ ، وَلاَ يَسْأَلُ عَمَّا عَهِدَ .

قَالَتِ السَّادِسَةُ: زَوْجِى إِنْ أَكَلَ لَفَّ ، وَإِنْ شَرِبَ اشْتَفَّ ، وَإِنِ اضْطَجَعَ الْتَفَّ ، وَلاَ يُولِجُ الْكَفَّ لِيَعْلَمَ الْبَثَّ .

قَالَتِ السَّابِعَةُ: زَوْجِى غَيَايَاءُ أَوْ عَيَايَاءُ طَبَاقَاءُ ، كُلُّ دَاءٍ لَهُ دَاءٌ ، شَجَّكِ أَوْ فَلَّكِ أَوْ جَمَعَ كُلاًّ لَكِ .

(١) أخرجه مسلم في (٢٠٥١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه . وهو مما انفرد به دون البخاري

قَالَت الثَّامنَةُ: زَوْجِى المَسُّ مَسُّ أَرْنَب ، وَالرِّيحُ رِيحُ زَرْنَب .

قَالَت التَّاسِعَةُ: زَوْجِى رَفِيعُ العِمَادِ ، طَوِيلُ النِّجَادِ ، عَظِيمُ الرَّمَادِ ، قَرِيبُ البَيْتِ مِنَ النَّاد .

قَالَت العَاشِرَةُ: زَوْجِى مَالكٌ وَمَا مَالكٌ ، مَالكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلك ، لَهُ إبِلٌ كَثِيرَاتُ المَبَارك قَلِيلاتُ المَسَارِح ، وَإِذَا سَمِعْنَ صَوْتَ المِزْهَر أَيْقَنَّ أَنَّهُنَّ هَوَالكٌ .

قَالَت الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: زَوْجِى أَبُو زَرْع فَمَا أَبُو زَرْع أَنَاسَ مِنْ حُلِىٍّ أُذُنَىَّ ، وَمَلأَ مِنْ شَحْم عَضُدَىَّ ، وَبَجَّحَنِى فَبَجِحَتْ إِلَىَّ نَفْسِى ، وَجَدَنِى فِى أَهْلِ غُنَيْمَة بِشقٍّ ، فَجَعَلَنِى فِى أَهْلِ صَهِيل وَأَطِيط وَدَائِسٍ وَمُنَقٍّ ، فَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلاَ أُقَبَّحُ وَأَرْقُدُ فَأَتَصَبَّحُ ، وَأَشْرَبُ فَأَتَقَمَّحُ ..

أُمُّ أَبِى زَرْع فَمَا أُمُّ أَبِى زَرْع عُكُومُهَا رَدَاحٌ ، وَبَيْتُهَا فَسَاحٌ ..

ابْنُ أَبِى زَرْع ، فَمَا ابْنُ أَبِى زَرْع .. مَضْجعُهُ كَمَسَلِّ شَطْبَة ، وَيُشْبِعُهُ ذِرَاعُ الجَفْرَة ..

بِنْتُ أَبِى زَرْع ، فَمَا بِنْتُ أَبِى زَرْع .. طَوْعُ أَبِيهَا ، وَطَوْعُ أُمِّهَا ، وَمِلْءُ كِسَائِهَا ، وَغَيْظُ جَارَتِهَا ..

جَارِيَةُ أَبِى زَرْع ، فَمَا جَارِيَةُ أَبِى زَرْع لاَ تَبُثُّ حَدِيثَنَا تَبْثِيثًا ، وَلاَ تُنَقِّثُ مِيرَتَنَا تَنْقِيثًا ، وَلاَ تَمْلأُ بَيْتَنَا تَعْشِيشًا ..

قَالَتْ: خَرَجَ أَبُو زَرْع وَالأَوْطَابُ تُمْخَضُ ، فَلَقِىَ امْرَأَةً مَعَهَا وَلَدَان لَهَا كَالفَهْدَيْن، يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْت خَصْرِهَا بِرُمَّانَتَيْن ، فَطَلَّقَنِى وَنَكَحَهَا ، فَنَكَحْتُ بَعْدَهُ رَجُلاً سَرِيًّا ، رَكِبَ شَرِيًّا وَأَخَذَ خَطِّيًّا وَأَرَاحَ عَلَىَّ نَعَمًا ثَرِيًّا ، وَأَعْطَانِى مِنْ كُلِّ رَائِحَة زَوْجًا، وَقَالَ: كُلِى أُمَّ زَرْع ، وَمِيرِى أَهْلَك . قَالَتْ فَلَوْ جَمَعْتُ كُلَّ شَىْء أَعْطَانِيه مَا بَلَغَ أَصْغَرَ آنِيَة أَبِى زَرْع .

قال رسولُ الله ﷺ لعائشة: (كُنْتُ لَك كَأَبِى زَرْع لأُمِّ زَرْع) (١) ..

وعلى الرغم من أن حياة الرسول ﷺ لم تكن تتسع فعلاً لسماع هذا الحديث،

(١) متفق عليه، وسيأتي شرح له بآخر الكتاب .

إلا أن الرسول ﷺ سمعه، مع أن الله - تبارك وتعالى - أمر المؤمنين أن يقدموا صدقة إذا أراد واحد منهم أن يتناجى مع الرسول ﷺ، وأمر المؤمنين كذلك ألا ينتظروا في بيت الرسول ﷺ حتى يطيب الطعام: (لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ) (الأحزاب: ٥٣).

وذلك لأن وقت الرسول ﷺ زمن نبوة، ومع ذلك سمع الرسول حديث عائشة، وعلّق تعليقاً لا يزيد معناه عن محاولته لأن تشعر أنه كان معها في حديثها، وهو قوله: (كنت لك كأبي زرع لأم زرع).

وبعد ذلك يبقى على الزوجة أن تسعى لإرضاء زوجها، وهذا السعي له سبيل أساسي هو طاعة الزوج وتحقيق رغباته . وسنعطي أمثلة لزوجات فهمت كل واحدة منهن كيف يكون الإحساس برغبة الزوج ورضاه، وكيف كان تحقيق رغبة الزوج عندهن أقوى من إحساسهن بأنفسهن وطبيعتهن، ولم يكن مجرد أداء واجب من الواجبات عليهن:

- امرأة إبراهيم تُقَدِّر رغبة زوجها الطبيعية في أن ينجب ولداً، فتزوجه هاجر متنازلة عن رغبتها كزوجة في أن يكون زوجها لها وحدها، وحتى عندما رُزق إبراهيم واشتعلت الغيرة في نفسها لم تطلب من إبراهيم ترْكها، بل طلبت التوفيق بين ضرورة تحقيق رغبة الزوج، وبين معالجة الغيرة فطلبت منه أن يبعد هاجر وابنها عنها .
- وسودة بنت زمعة زوجة النبي ﷺ تتنازل بحقها وليلتها لعائشة لما رأت رسول الله ﷺ يحُبها.
- وهذه أم سليم تكبت في نفسها حزنها على ابنها عندما مات، وتُهيئ نفسها لزوجها فيقضي حاجته منها في ليلة طيبة ولا تخبره بوفاة ابنها إلا في الصباح.

فكانت رغبة إبراهيم في الأولاد عند سارة أقوى من رغبة سارة كزوجة في الانفراد به كزوج ، وكانت رغبة الرسول ﷺ عند سودة بنت زمعة أقوى من حقها في ليلتها، ورغبة زوج أم سليم عندها أقوى من الأمومة والحزن على الولد.

أدب النوم واليقظة

وإذا كان من المعروف أن من السنة أن تقول الزوجة لزوجها قبل نومها هل لك بي حاجة، فيجب أن يكون من المعروف أيضاً معنى أن تكون الزوجة نائمة.

وبيان هذا المعنى هو أن استئذان الزوجة في النوم إنما هو مسئولية الزوج عن هذا النوم، لأنها نامت بإذنه فلابد أن يوفي حق هذا الاستئذان، ومن هذا المعنى أيضاً أن استيفاء حق استئذانها يتضمن حقيقة كرامتها عند زوجها، فالزوجة عندما تنام تشعر بكرامة نفسية ضخمة إذا حرص زوجها على حالة نومها، وليس أدل على أن مراعاة النوم تكريم للنائم من حديث الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار) (١).

وقد وضح من الحديث كيف يكون اعتبار وتقدير حال النوم.

وحقيقة تكريم الزوجة - بمراعاة نومها - الواردة في حديث استئذان الزوجين عند النوم، وحديث الغار الوارد في نوم الأبوين، ليس هما النصوص الشرعية الوحيدة المثبتة لهذه الحقيقة ..

ولكن المسألة متفق عليها بين أعظم رسولين .. جبريل رسول الوحي عليه السلام .. ومحمد رسول العالمين عليه الصلاة والسلام.

(١) كما جاء في الصحيح عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (إنطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى أواهم المبيت إلى غار، فدخلوه، فإنحدر صخره من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم . قال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهم أهلا ولا مالا . فنأى بي طلب الشجر يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما، فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما، وأن أغبق قبلهما أهلا أو مالا، فلبثت والقدح علي يدي - أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمي - فاستيقظا فشربا غبوقهما . اللهم إن كنت فعلت ذلك إبتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت ا لصخرة شيئا ... الحديث .

قالت عائشة: (ألا أحدثكم عني وعن رسول الله ﷺ، قلنا بلى . قالت: لما كانت ليلتي التي كان النبي ﷺ فيها عندي انقلب فوضع رداءه وخلع نعليه، فوضعهما عند رجليه وبسط طرف إزاره على فراشه، فاضطجع فلم يلبث إلا ريثما ظن أن قد رقدت، فأخذ رداءه رويداً وانتعل رويدا وفتح الباب فخرج ثم أجافه رويدا، فجعلت درعي في رأسي واختمرت وتقنعت إزاري ثم انطلقت على إثره، حتى جاء البقيع فقام فأطال القيام ثم رفع يديه ثلاث مرات ثم انحرف فانحرفت، فأسرع فأسرعت، فهرول فهرولت، فأحضر فأحضرت، فسبقته فدخلت، فليس إلا أن اضطجعت فدخل، فقال: مالك يا عائش ! حشيا رابية ؟ قالت: قلت لا شيء !، قال: لتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير، قالت: قلت يا رسول الله ! بأبي أنت وأمي، فأخبرته، قال: فأنت السواد الذي رأيت أمامي؟ قلت: نعم! فَلَهَدَني في صدري لهدة أوجعتني.. ثم قال: أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله ؟!

قالت: مهما يكتم الناس يعلمه الله ؟! قال: نعم، فإن جبريل أتاني حين رأيتِ فناداني فأخفاه منك، فأجبته فأخفيته منك، ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك، وظننت أن قد رقدت، فكرهت أن أوقظك، وخشيت أن تستوحشي، فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم . قالت: قلت كيف أقول لهم يا رسول الله ؟ قال: قولي السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون) (1).

و لعلنا نلاحظ من الحديث كيف أن رسول الله ﷺ كان يتصرف رويداً، وكيف أن جبريل ينادي رسول الله دون أن يسمع عائشة، وهذا معنى: (فناداني فأخفاه منك)، وكيف أجاب رسول الله ﷺ بهذا الأسلوب: (فأجبته فأخفيته منك).

وإذا كان الاستئذان في الفراش من أجل قضاء حاجة الزوج من زوجته، فإن من أجمل صور الاستئذان خارج الفراش هو أن تنتظره - فلا تنام - قدر استطاعتها

(1) متفق عليه: البخاري في (النكاح) (٢٥٤- ٢٥٥/٩)، ومسلم رقم (٢٤٤٨) من حديث عائشة رضي الله عنها .

- حتى يجيء إلى البيت - فيجدها في انتظاره.

ولكي يكون النوم زمناً جميلاً في العلاقة الزوجية، فإن كلمة طيبة قبل النوم تعطي للنوم حلاوة - يجدها الزوجان معهما حتى الاستيقاظ.

لأن الإنسان يستيقظ على ما نام عليه ..

فيمسي الزوجان ويصبحان يحلقان في جو السعادة كالطير، ولكن الطير لا ينسى التسبيح ..! فلا يبقى بعد هذه الكلمة الطيبة - التي تعطي للنوم حلاوة - إلا الأذكار التي تعطي صاحبها حفظاً في الدنيا وجنة في الآخرة.

وفي المقابل فإن هذه المعاني الجميلة هي التي تفسر أثر الهجر في المضجع، ليكون المعنى حينئذ هو عدم الإحساس بالوجود الذي كانت أجمل لحظاته هي المضجع.

فالاضطجاع هو حالة ما قبل النوم بكل ما فيها من سنن وأحكام، وبكل ما فيها أيضاً من مودة ورحمة، وبكل ما فيها كذلك من راحة ومتعة ..

وبالعودة إلى آداب النوم واليقظة، فإن كل ما سبق لا ينطبق على حالتين للزوجات:

الزوجة التي تزوجت لتنام، ولا يراها زوجها في يقظة إلا نادراً حتى تجعله عندما يراها مستيقظة يظن أنها رؤية مناميه ..!

والزوجة التي تزوجت لتجعل زوجها لا ينام، التي تحمل عليه بدلاً من أن تحمل عنه، وتجمع له الهم بدلاً من أن ترفع عنه.

فيجب أن يكون نوم الزوجة في بيت زوجها قدر حاجتها حتى لا تنام إلا وقد غلبها النوم على اليقظة.

ولذلك تقول إحدى المقربات لعائشة رضي الله عنها في وصفها في بيتها: (هي جارية تنام على العجين) .. أي يغلبها النوم بعد التعب من العجين حتى لا تتمكن من تغطيته من شدة الإرهاق، وهكذا يكون طعم نوم الزوجات، ولا يكون هذا إلا بعد إرهاق الواجبات.

الأسباب الأساسية لحماية البيت من خلال النصوص:

ونواصل تحديد أسباب الحماية الأساسية للبيت من خلال النصوص مباشرة في صورة توجيهات محددة لتستقر في الأذهان ويسهل التطبيق:

(١)

قال رسول الله ﷺ: (اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا ، فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاهُ ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا)[١].

في هذا الحديث الوصية بمراعاة الاعوجاج في خُلق النساء حتى لا يكون الاصطدام في التعامل والمعاشرة، ومراعاة الاعوجاج يجب أن يكون بحدود، حتى لا يكون النشوز أو المعصية نتيجة هذه المراعاة، وأهم هذه الحدود ألا مراعاة في معصية شرعية، لأن الشريعة بذاتها هي التي تحقق تلك المراعاة، ولا يبقى غير الالتزام الكامل بأحكامها، ولا مراعاة في معصية الزوج، لأن الأمر بطاعة الزوج من أحكام تلك الشريعة ومن الأفضل أن نذكر مثالاً لهذه المراعاة المقصودة: كان النبي ﷺ في حجرة السيدة عائشة فبعثت السيدة زينب بإناء فيه بعض التمر ليأكله النبي فغارت عائشة، وغضبت، وأخذت الإناء وألقته على الأرض أمام النبي ﷺ فماذا كان من النبي ﷺ ؟، ضحك لغيرة عائشة وهذه كانت المراعاة لطبيعة الزوجة، ولكنه أمرها أن تجمع التمر وتغسله وتأتي بإناء من عندها لتعطيه لزينب بدلاً من الذي كسرته فلم تتمادى عائشة في غضبها، بل أطاعت النبي ﷺ فيما أمر به، فجمعت التمر وغسلته وأعطت الخادم إناءا بدل الذي كسرته (٢)، ولم تتجاوز بغضبها حدود الالتزام بالحق .

(١) متفق عليه: البخاري في (النكاح) (٩/٢٥٣)، ومسلم رقم (١٤٦٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) أخرجه البخاري (٣١٢ - ٦/٣١٣)، ومسلم (١٧٩٥) وسمى النسائي في روايته (٧/٧٠) التي أرسلت الإناء أم سلمة وفي رواية أخرى (٧/٧١) أنها صفية رضي الله عنهن.

ولأجل الاعوجاج الطبيعي في خلقة المرأة فإن النبي ﷺ- يحدث حديثاً يهيئ إحساسناً بالمرأة، بحيث نرى فيها المحاسن واضحة، ويصغر في نظرنا السيئ منها، فيقول رسول ﷺ: (لا يفرك (يبغض) مؤمن مؤمنة، إن كره منها خُلقاً رضي آخر) (١) .

والحديث يذكر الزوجة بصفة الإيمان لكي يقوي إحساسنا بإيمانها على إحسانها باعوجاجها، وتلك هي روعة المعالجة، ثم يعلمنا النبي ﷺ دعاءاً بأن يحقق الله لنا خير المرأة، يقول فيه: (إذا تزوج أحدكم امرأة أو اشترى خادماً فليأخذ بناصيتها وليسمِّ الله - عز وجل - وليدعُ بالبركة: اللهم إني أسألك من خيرها وخير ما جبلتها عليه وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه) (٢).

(٢)

قال رسول الله ﷺ: (لا يؤم الرجل الرجل في بيته إلا من بعد إذنه، ولا يجلس على تكرمته إلا من بعد إذنه) (٣).

لأن الإمامة شكل من أشكال القيادة التي لا يجب أن يمارسها غير الزوج في بيته وسلطانه إلا بالإذن الذي يؤكد للزوج هذه السلطة وتلك القيادة إذا مارسها أحد غيره .

ولا يمكن تحقيق مضمون هذا الحكم في أي عمل يؤثر في نظرة الزوجة إلى زوجها غير الصلاة، مثل المناقشات الفكرية التي تحب الزوجة كذلك أن يكون لزوجها فيها وضع الريادة، وبالموازنة بين حق العمل الذي يقتضي الدفاع عن الحق بصرف النظر عن الرجال، وحق الزوجة في شعورها تجاه زوجها .. يصير من الأولى إبعاد النساء عن واقع الاحتكاكات الفكرية بين الرجال .

(١) أخرجه مسلم في (١٤٦٩) من حديث أبي هريرة . رضي الله عنه .
(٢) أخرجه أبو داود في (النكاح)، (٦/١٩٦)، والحاكم (١٨٥- ٢/١٨٦) والنسائي في اليوم و الليلة (٢٤٠)، و(٢٦٣) وابن ماجه (١٩١٨) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وسنده حسن .
(٣) أخرجه الترمذي في (الإمامة) (٢٧٧٢)، وقال حسن صحيح، وأخرجه أحمد (٤/١١٨) وابن ماجه(٩٨٠).

ومن الأحاديث التي تؤكد سلطان الرجل في بيته على زوجته قول الرسول ﷺ: (لا يُسأل الرجل فيم ضرب زوجته)[1]، لأن هذا السؤال تدخُّل مرفوض في قوامة الزوج على زوجته . ومن صور التدخل في سلطان الرجل أن يؤذن لأحد في بيته وهو كاره له، ولهذا جعل رسول الله ﷺ عدم الإذن لمن يكره الزوج من جوهر حقوق الزوج على الزوجة، إذ يقول: (فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئْنَ فراشكم من تكرهون، ولا يؤذن في بيوتكم لمن تكرهون)[2] . وفي رواية البخاري: (لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه ولا تأذن في بيته إلا بإذنه)[3].

(٣)

قال رسول الله ﷺ: (لا يدخل بيتك إلا مؤمن ولا يأكل طعامك إلا تقي)[4].

في هذا الحديث يحذر رسول الله ﷺ من أن يدخل بين الإنسان إلا مؤمن، لأن المؤمن هو الذي سيقدر حرمة البيت، وسيكون شريف الجلسة، وسيلتزم بآداب الضيافة، أما الأكل فيجب أن يكون فيه أشد الحرص، لأن معني أن يأكل رجل من طعام الزوجة وهو غير تقي، فإن هذا الإطعام سيكون خطيراً، لأن المؤاكلة تقرب بين النفوس بالطبيعة الإنسانية، فلا بد أن تكون هنا التقوى التي تجعل هذا التقارب النفسي طاهراً نقياً . ولهذا ربط الرسول بين ضرورة الإيمان ودخول البيت، أما الطعام فقد ربطه بضرورة التقوى .

(١) أخرجه أبو داود (١٨٥ / ٦)، والنسائي في العشرة رقم (٢٨٦) وابن ماجه (١٩٨٦)، وأحمد (١/٢٠) من طريق داود بن عبد الله الأودي عن عبد الرحمن المسلي .
(٢) أخرجه الترمذي، (٣٠٨٧)، وابن ماجه رقم (١٨٥١) في النكاح عن عمرو بن الأحوص وسنده صحيح .
(٣) أخرجه البخاري في (النكاح) (٩/٢٩٣) عن أبي هريرة .
(٤) أخرجه الطبراني في الأمر الأوسط من حديث عائشة مرفوعاً بلفظ: (لا تدخل بيتك إلا تقياً، ولا قول معروفك إلا مؤمناً)، مجمع (٨/١٨٣) قال الهيثمي: فيه من لم أعرفهم و الشطر الآخر من الحديث: أخرجه أحمد (٣/٣٨)، و أبو داود (١٧٩ /١٣) و الترمذي (٢٣٩٥)، وغيرهم من حديث أبي سعيد وسنده صحيح .

(٤)

قال رسول الله ﷺ: (لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها، كأنه ينظر إليها)[١].

ومن أحكام الحديث النهي عن وصف المرأة امرأة أجنبية لزوجها، والنهي عن وصف الرجل الرجل الأجنبي لزوجته كأنها تراه .

فقد يكون الإنسان حريصاً على حماية بيته من الغرباء، ولكنه لا يحميه من نفسه، فيصف الرجل الرجل لزوجته كأنها تراه، على الرغم من أن الوصف لا يقل خطراً عن إدخال رجل غريب في حياة الزوجة، إذ إن الوصف له أثر الرؤية في كيان الإنسان باعتبار طبيعة التخيل، بل إن الوصف يزيد خطراً عن الرؤية بتحقيق الشوق إلى رؤية الموصوف، وعندما يكون الوصف من الزوج نفسه تشعر المرأة بأن لها حق الاستماع لصفات الرجل الذي يصفه زوجها والاهتمام بأمره والسؤال عنه باعتبار أن المتحدث هو الزوج .

كما أن المرأة تملك قدرة على المقارنة بين زوجها والرجل الموصوف، وتنتهي تلك المقارنة في إحساس الزوجة غالباً لصالح الرجل الغريب، وكل هذا يحدث أيضاً إذا وصفت المرأة المرأة لزوجها كأنه يراها .

(٥)

قال رسول الله ﷺ: (إياكم والدخول على النساء، فقال رجل: أفرأيت الحمو؟ فقال: الحمو الموت)[٢].

في هذا الحديث يوضح الرسول ﷺ مشكلة مهمة، وهي دخول الرجل من غير المحارم على المرأة في غيبة الزوج، وهذا الحديث يحدد القضية بأسلوب خطير،

(١) أخرجه البخاري في (النكاح) (٣٣٨ /٩) من حديث ابن مسعود مرفوعاً: (لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها) وهو عند أبى داود (٦/١٨٧) و الترمذي رقم (٢٧٩٠) .
(٢) متفق عليه: البخاري في (النكاح) (٩/٣٣٠) ومسلم فيه أيضاً رقم (٢١٧٢) من حديث عقبة ابن عامر .

فهو يتكلم عن الحمو وهو أخو الزوج الذي يعتبر أقرب الناس إلى الزوج، ولكنه يقول (الحمو الموت) أي الهلاك والخراب .

والواقع أن عدم دخول أحد - من غير المحارم - على الزوجة في غيبة الزوج هو الضمان الأول لحماية الأعراض، ولهذا يقول الرسول ﷺ في دفاعه عن السيدة عائشة - رضي الله عنها - عندما اتهمها المنافقون بالإفك: (يا معشر المسلمين ! من يعذرني في رجل بلغني أذاه أهلي، فو الله ما علمت في أهلي إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي)[1].

(٦)

قال رسول ﷺ: (لا تسأل المرأة طلاق أختها لتكفي إناءها)[2].

في هذا الحديث يشير رسول الله ﷺ إلى سبب من أسباب الخطر الذي قَلَّ أن تتحقق منه النجاة، وهو محاولة امرأة غريبة أن تأخذ زوجاً من زوجته، ولذا يجب أن تكون الزوجة حريصة على ألا تُدخل في حياة زوجها أي امرأة أخرى، لكي لا تسعي هذه الأخرى إلى الاستحواذ عليه وتحاول التأثير فيه، والغيرة غير كافية لتحقيق هذا الأمر، لأن المرأة قد تغير على زوجها، ولكنها قد تكون غبية لا تفهم، أو غافلة لا تدرك، والنساء على قدر كبير من المهارة في هذه النواحي، فأسهل ما يكون .. أن تغلب امرأة زوجة على زوجها، ولم يكن الأمر إلى الزوجة لأن الأقوى هنا هو المرأة الغريبة، باعتبار أن العلاقة الزوجية واستمرارها قد يبلد إحساس الزوج نحو زوجته، ولكن احساساته لن تكون بليدة مع الغريبة، ولهذا يقول الرسول ﷺ: (لا تطلب المرأة طلاق أختها لتكفي إناءها)، لأن المرأة الغريبة هي مصدر الخطر فعلاً.

---

(١) البخاري (٥/٦٩٢) وفي التفسير، ومسلم أيضاً (٢٧٧٠) .
(٢) متفق عليه: البخاري (٤/ ٣٥٣) ومسلم رقم (١٥١٥) بعض حديث أبي هريرة .

(٧)

قال رسول الله ﷺ: (لا خير في جمع النساء إلا لصلاة أو قتيل)(١).

لأن الصلاة لا يجوز معها الكلام، ولأن القتيل أمر يؤكد فيه الفجيعة المانعة من الكلام، إذ قد يكون ميتاً مسناً، لا فجيعة في موته، فتستغل النساء جمعهن في الكلام.

ولأن النساء يتأثرن بأخلاق بعضهن البعض كان التحذير من جمعهن بصفة دائمة، وليس أدل على هذا التأثر من قول عمر(٢): (كنا نغلب نساءنا، فلما جئنا إلى المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم)، يقصد أن نساء المهاجرين تأثرن بنساء الأنصار في غلبة الرجال، وكانت تلك شكوى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه.

(٨)

قال رسول الله ﷺ: (إذا دخلت بيتك فأغلق بابك، وأكفئ إناءك، وأطفئ سراجك، فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً)(٣).

ولقد وضح في الحديث أن فائدة إغلاق الباب هي عدم دخول الشيطان، ويضاف إلى هذا الحديث قول الرسول ﷺ في حديث آخر:

(إن الشيطان يفر من البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة)(٤)، وبذلك يصبح البيت في حرز من الشيطان مع قولك بسم الله عند الدخول وعند الأكل، كما ورد في حديث: (إذا دخلت بيتك)، وأما إكفاء الإناء فقد جاء سببه في حديث آخر، ونصه: (أن مرضاً ينزل من السماء كل عام فيصيب كل إناء مكشوف)(٥)،

---

(١) رواه أحمد.
(٢) هو قطعة من حديث (الإيلاء) الذي أخرجه البخاري ومسلم وسبق تخريجه عند قول عمر لابنته: لا يغرنك إن كانت جارتك هي أوسم منك عند رسول الله ﷺ.
(٣) متفق عليه: البخاري (٦/٣٣٦) ومسلم ن (٢٠١٢) عن جابر.
(٤) أخرجه مسلم (٧٨٠) من حديث أبي هريرة.
(٥) أخرجه مسلم في (الأشربة) (٢٠١٤)، عن جابر رضي الله عنه.

وحكمة إطفاء السراج جاء ت في رواية أخرى: (حتى لا تأتي الفأرة فتجر النار وتحرق البيت)[1]، ولقد أوضحت هذه الوصايا الاهتمام البالغ من الرسول ﷺ بأسباب حماية البيت .

(٩)

قال رسول الله ﷺ: (إذا قال العبد: باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم) (ثلاث مرات) (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق) (ثلاث مرات) فإنه لا يضره شيء [2]، وذلك كل صباح وكل مساء .

يتناول هذا الحديث كيفية حماية البيت من خطر الأضرار والأحداث العارضة، وقد ورد في هذا الحديث [3] أن رجلاً صحابياً قيل له أدركْ بيتك فقد احترق، فقال: لا، ما ينبغي له أن يحترق وقد قلت .. وذكر الدعاء، ثم قال: وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: من يقولهن – يعني هذه الكلمات – لا يضره شيء في يومه) .

وفي النهاية نقول إنه على الرغم من الأخْذ بكل أسباب الحماية للبيت والزوجة، تبقى في نفس الزوج رغبة في المزيد من الإحساس بالأمان على زوجته وعرضه، ولكن هذا الإحساس لا يمكن أن يكتمل عند الزوج إلا من خلال استقرار عدة حقائق في ضميره وأهمها:

(١) عند البخاري (١١/٨٥) عن جابر أيضاً .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات رقم (٣٣٨٨) وابن ماجه رقم (٣٨٦٩)، وهو صحيح. وقد ورد حديث آخر: (جاء رجل إلى النبي فقال له ﷺ:(أما لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم تضرك) أخرجه مسلم (٢٧٠٩) .

(٣) المقصود هو قصة أبي الدرداء، عن طلق بن حبيب قال: (جاء رجل إلى أبي الدرداء فقال: يا أبا الدرداء فقال: يا أبا الدرداء، قد احترق بيتك . قال: ما احترق، لم يكن الله – عز وجل – ليفعل ذلك، لكلمات سمعتهن من رسول الله ﷺ من قالهن أول نهاره لم تصبه مصيبة حتى يمسي، ومن قالهن أخر النهار لم تصبه مصيبة حتى يصبح: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم، ما شاء الله كان وما لم يكن لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .. أعلم أن الله علي كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما .. اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربي علي صراط مستقيم) أخرجه ابن السني في (عمل اليوم والليلة) رقم (٥٦). وفي رواية أخرى عند ابن السني أيضا (٥٧): (وقد قلتها اليوم انهضوا بنا، فقام وقاموا معه فانتهوا إلى داره وقد احترق ما حولها، ولم يصبه شيء.

أن العفاف قدرٌ إلهي يتحقق في الزوجة بعلم الله لها، وعدله فيها، والدليل في قصة هجرة سيدنا إبراهيم وزوجته سارة إلى مصر - التي مر ذكرها (١)، فقد كان الملك يأخذ كل امرأة جميلة غصباً، فإن كان معها أخوها تركه، وإن كان معها زوجها قتله، فعلم هذا الملك بقدوم إبراهيم وسارة، فطلبها، فكان موقف إبراهيم أن قال لها: أخبريه أني أخوك، وهذا بالطبع فيه نجاة لإبراهيم . ولكن أين التفكير في نجاة الزوجة؟، هذا ما تركه إبراهيم للزوجة نفسها، فوقفت أمام هذا الملك الماجن تدعوا الله: (اللهم إن كنت تعلم أني قد أحصنت فرجي إلا على زوجي، فأبعد عني هذا الشيطان)، فخسف الله به الأرض واستجاب لها، ومن الدعاء والاستجابة يتبين كيف أن العفاف قدر تحقق لزوجة إبراهيم بأسباب من عندها، وهي إحصان فرجها إلا على زوجها، ولما كانت كذلك كتب الله لها النجاة والعفاف وتأكدت بذلك مسئولية المرأة الحقيقية عن نفسها وعفافها.

(ونذكّر بقصة المرأة - سابقة الذكر - التي احتاجت وأنجاها الله (٢)، كما أن عبودية المرأة وخشيتها لله هي الحماية الأصلية لها من الانحراف، فإذا أحست الزوجة أنها قبل أن تكون زوجة لرجل فهي أمة لله، وانحرافها قبل أن يكون خيانة للزوج فهو كبيرة عند الله، كما قال الرسول ﷺ: (والله أغير منا) (٣)، وقال: (وما أحد أغير من الله ومن أجل ذلك أنزل الحدود (٤)، وهذا قيمته أن تشعر المرأة بغيرة الله عليها، ونذكّر هنا بقول المرأة التي سمعها عمر تقول:

فوالله لولا الله أني أراقبه لحرك من هذا السرير جوانبه(٥).

---

(١) سبق تخريجها في أوائل الكتاب .
(٢) قصة الثلاثة الذين دخلوا الكهف وتوسلوا بأعمالهم الصالحة سبق تخريجها .
(٣) البخاري في (النكاح) (٩/٣١٩) ومسلم رقم (١٤٩٩)، من حديث سعد بن عبادة .
(٤) البخاري في (النكاح) (٩/٣١٩) من حديث ابن مسعود، ومسلم من حديث عبادة (١٤٩٩) .
(٥) أخرجه البيهقي في السنن (٩/٢٩) عن ابن عمر خرج عمر من الليل فسمع امرأة تقول:
تطاول هذا الليل واسودت جوانبه وأرقني أن لا حبيب ألاعبه
فقال لحفصة كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها، فقالت: ستة أو أربعة أشهر، فقال عمر: (لا أحبس الجيش أكثر من هذا)، وذكره الحافظ ابن كثير في تفسير سورة البقرة (٢٢٧)، (١/٤٤٧)، وعزاه للموطأ وسنده قوي.

وليس قدر العفاف هو قدر النجاة من الانحراف فقط، ولكنه أيضاً قدر النجاة من الاتهام بالانحراف . وهو قدر البراءة الذي يحقق النجاة أمام الناس بعد قدر العفاف الذي يحقق النجاة أمام الله .

وعندما نذكر الدليل على قدر البراءة فبالطبع ستكون قصة مريم ابنة عمران التي أنطق الله من أجل براءتها عيسي وهو في المهد، ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا، وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (مريم ٣٠ - ٣٣).

ولقد رأينا في قصة جريج كيف أن الغلام نطق في المهد أيضاً عندما ضربه جريج على صدره وقال: منَ أبوك ؟، قال: أنا ابن الراعي (١) .

ومن هنا كان النبي ﷺ واثقاً بأن الله سيبرئ عائشة.

فقال لها: (يا عائشة، إن كنت بريئة فسيبرئك الله) (٢) .

وكما أن قدر العفاف له أسباب فإن قدر البراءة له أسباب أيضاً.

وأهمها: البعد بالنفس عن الشبهات .

و الدليل هو تصرف النبي ﷺ عندما كان يسير مع زوجته صفية بالليل فرآه اثنان من الصحابة، فقال لهما: (على رِسْلكما، إنها صفية زوجتي . فقالوا: سبحان الله ! يا رسول الله ! . قال: إن الشيطان يجري من ابن آدم ومجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلبكما شيئاً) (٣).

وبهذا التصور يجب أن نكل أمر الزوجة إلى الله، سواء من ناحية نجاتها من الانحراف الفعلي، أو نجاتها من الاتهام بالانحراف أمام الناس .

وأن نتوكل على الله مع الأخذ بأسباب الحماية، إذ إن صون العرض في الواقع

---

(١) قصة جريج سبق تخريجها، وأنها في صحيح مسلم انظر (ص: ١١،١٠) .
(٢) سبق تخريجه قصة الإفك (ص: ٧٩،٨٥) أنظرها هناك .
(٣) متفق عليه: البخاري في (الاعتكاف) (٤/٢٧٨)، رقم (٢١٧٥) من حديث صفية .

أكبر من مجرد الأخذ بأي سبب، ومن الخطأ الاعتماد في هذا على أي سبب دون التوكل على الله، فإن ظن الإنسان أن حب زوجته له يحميها من الانحراف فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، وإن ظن في نفسه الجمال أو الغني أو القوة فهناك من هو أجمل منه وأغنى منه وأقوى منه . ومن هذا تأتي ضرورة التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب صلاحاً للبال وراحة للضمير .

وهذا نبينا - عليه الصلاة والسلام - يقول: (اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل)[1] . وبذلك يستخلف النبي ﷺ الله في أهله، وهكذا يجب أن نفعل .

(١) سبق تخريجه - قريباً - وهو صحيح .



خطر البيت

وبعد تكوين البيت وحمايته بقي أمر أخير.. وهو أن نحمي أنفسنا من أخطار البيت، وليس البيت خطراً إلا على الدعاة، ولهذا كان لابد أن يكون ارتباط الداعية ببيته بأصول تحميه من الرضا بمسكنه ومعيشته دون الجهاد في سبيل الله، فيقع في التحذير الذي جاء في قول الله:

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة:٢٤)..

وكذلك التحذير من عداء الزوجة، ونصه قول الله في سورة التغابن:

﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ (التغابن:١٤)..

ومعنى عداء الزوجة والأولاد أن يكونوا سبباً في ركون الإنسان إليهم والقعود عن الجهاد . كما أن هناك تحذيراً تنبه فيه النبي ﷺ إلى محاولة الشيطان في التصاق الإنسان ببيته وربطه بأهله، والحديث يقول: (إذا خرج الإنسان للجهاد جلس له الشيطان على قارعة الطريق يقول له: تُنكح الزوجة، فيمضي فيقول له: يُيتّم الولد، فيمضي، فيقول له: يقسم المال، فيمضي) (١).

ولهذا فإن القرآن يعتبر أن الذي يخرج من بيته يكون قد أتم معنى الخروج في سبيل الله، ولو لم يحقق هدف الخروج بدليل قول الله عن الهجرة: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ١٠٠).

(١) حسن: أخرجه النسائي في (الجهاد) (٢٢،٢١/٦) وأحمد (٤٨٣/٣) وابن حبان (٥٧/٧) .

وكذلك فإن القدرة على الخروج من البيت تعادل تماماً القدرة على التضحية بالنفس، بدليل قول الله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ (النساء: ٦٦)، ومن أجل ذلك فإن القرآن يعالج الإحساس بالجبن عند الإنسان بمعالجة إحساسه ببيته على أنه ليس هو الشيء الذي سيحميه من الموت أو القتل: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ (عمران: ١٥٤) .

ولهذا كان لابد من تحديد الأصول التي يعيش بها الداعية في مسكنه، ويتعامل بها مع زوجته دون أن ينسي أخرته ودعوته . وأول هذه الأصول هي ممارسة إرادة الخروج في سبيل الله، ولو في أيسر الصور والمهام مثلما كان يفعل الرسول ﷺ عند خروجه إلى الصلاة كما تقول عائشة:

(كان رسول الله في خدمة أهله فإذا سمع المؤذن قام كأنه لا يعرفنا ولا نعرفه) (١)، هذا إذا كان مستيقظاً أما إذا كان نائماً (قام وكأنه في فزع) .

وهذا السلوك هو الذي يحقق إرادة الخروج، لأن التأخير ولو لحظة عن الخروج عند الضرورة هو الذي يسبب القعود، وهذا موقف وضحت فيه آثار التأخير عن الخروج، وهو موقف كعب ابن مالك، حيث لم يكن ينقصه نية الخروج ولا إمكانياته، لكنه وهو واثق بإمكانية اللحاق بالجيش لم يتمكن من ذلك وكان من المخلفين، وعندما سأل رسول الله ﷺ عنه في الميدان كان رد أحد الصحابة يوضح كيف كان الانتباه إلى هذا الأمر، وكيف كانت دقه التصور عنه، إذ قال: (يا رسول الله، شغله برديه، والنظر في عطفيه) (٢)، فإن نظرة من الإنسان إلى حياته بإعجاب أو لحظه أمل في الدنيا من الممكن أن تسبب قعوده، ولذلك كان الأمر بأن يعتزل كعب امرأته تربية له، أما الصاحبيان اللذان تخلفا مع كعب طلباً من

---

(١) أخرجه البخاري في (النفقات) (٩/٥٠٧) دون الزيادة: (كأنه لا يعرفنا ولا نعرفه) .
(٢) قصة كعب أخرجها البخاري (٨/١١٣) في المغازي، ومسلم رقم (٢٧٦٩) من حديث كعب بن مالك نفسه .

رسول الله بقاء زوجاتهما في البيت لخدمتهما فأذن لهما دون معاشرتهما .

وهذا يعني أن مشاعر العلاقة الاجتماعية الكامنة في كيان الإنسان بطبعه الاجتماعي لابد أن تخضع لمقتضيات الدعوة.

فعندما كانت المقاطعة في قصة كعب أمراً واجباً كان توجيه تلك المشاعر نحو الزوجة أمراً ضرورياً كمقدمة للمقاطعة الكاملة.

ولكن عندما يكون قيام العلاقة الاجتماعية بين المسلم والمسلمين في الوضع الطبيعي أمراً واجباً - كضرورة للدعوة - يكون الحذر من التقصير في قيام تلك العلاقة الاجتماعية الواجبة، وتوجيه تلك المشاعر نحو العلاقة الزوجية، لأن هذا ينشئ انفصالاً بين الفرد والجماعة ويسبب الركون إلى الزوجة.

وهذا موقف آخر يعطينا نموذجاً لإرادة الخروج والحذر من التأخر، وهو موقف (حنظلة بن أبي عامر) الذي يسمع نداء الجهاد (أن يا خيل الله اركبي)، وهو يغتسل من الجنابة فلا يتم الاغتسال ويخرج ونتتبعه من لحظة خروجه، فتراه يصل إلى قمة التضحية، حيث استُشهد فقال النبي ﷺ: (لقد رأيت الملائكة تغسله)[1].

وتبرز حقيقة عظيمة من موقف حنظلة وهي أن تحقُّق قمة التضحية لن يكون إلا من منطلق التجرد الكامل.

أما في لحظات وجود الإنسان في بيته، فيجب أن يكون منشغلاً عقلاً ووجداناً بدعوته، وما حدث من عمر بن الخطاب يوضح هذه الضرورة ..

فقد كان لعمر بن الخطاب جار يتناوب معه النزول إلى المدينة والإتيان بأخبار الدعوة، حيث كان عمر يسكن أعالي المدينة مع هذا الجار، فحدثت المفارقة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين نسائه، فجاء الرجل إلي عمر، وناداه من خلف الباب: أنّ يا عمر لقد حدث شيء جلل، فقال عمر: أجاءت غسان ؟ وغسان هذه

(١) أخرجه الحاكم وصححه علي شرط مسلم .

كانت قبيلة متحالفة مع الروم ضد رسول الله – فقال الرجل: لا، فتشعر من توقع عمر مدى انشغاله بأمور الدعوة في لحظات وجوده ببيته (١).

وهذه لحظات حزن وفزع يعيشها حنظلة عندما يظن أنه انشغل عن أخوته، وهو في بيته فيخرج باكياً فيراه أبو بكر، فيقول له: ما الذي يبكيك يا حنظلة ؟ فيقول له: نافق حنظلة . فقال أبو بكر: كيف ؟، قال: نكون مع رسول الله نذكر الآخرة فإذا عدنا إلى بيوتنا لاعبنا أولادنا، فقال أبو بكر: والله أنا مثلك، وذهب الاثنان إلى رسول الله ﷺ يشتكيان ذلك.

ولهذا يجب أن يعايش المسلم أهله بحذر ويحدد إحساسه بزوجته على أنها متاع زائل، وأنه في حياته مع تلك الزوجة في الدنيا مجرد إعارة عندها من زوجته في الآخرة، ولذلك يقول الرسول ﷺ: (لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا ، إلا قالت زوجته من الحور العين : لا تؤذيه قاتلك الله ، فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا) ..

ونحن لا ننكر أن للإنسان لهفة طبيعية إلى بيته وأهله ..

وهذا جابر بن عبدالله يخرج في سبيل الله عريساً ويقاتل ويرجع مع المسلمين منتصراً، فيلاحظ رسول الله ﷺ جابراً وهو يسبق الجيش، فيسأله عن ذلك، فيقول: يا رسول الله.. تزوجت !

فإسراع جابر في عودته إلى البيت دليل على هذا الإحساس الفطري بحب العودة إلى الأهل والبيت، ولكن هذا الإحساس لم يتمثل عملياً إلا في الإسراع قليلاً في العودة ن ولم يكن مانعاً من الخروج في سبيل الله أصلاً.

وحتى لهفة العودة بعد الخروج في سبيل الله كان لها المعالجة النفسية التي تمنع خطرها، وهي سُنة رسول الله ﷺ في الصلاة ركعتين بعد الرجوع من السفر وقبل الدخول في البيت، فهاتان الركعتان ترجعان بالمسلم إلى إحساسه الصحيح

(١) هذا الجار هو: عتبان بن مالك، والقصة أخرجها البخاري في مواضع من صحيحه منها في (العلم) (١٨٥/١).
(٢) أخرجه الترمذي (٢ / ٢٠٨ بشرح التحفة) وابن ماجه (٦ / ٦٤١) وأحمد (٥ / ٢٤٢) وصححه الألباني.

تجاه بيته وأهله حتى لا يصل إحساس اللهفة بالإنسان إلى إحساس الرضا بالمسكن الذي تحذر منه الآية.

وكذلك سنة دعاء العودة الذي يربط الإحساس بالرجوع إلى البيت والعبودية لله: (آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون) . وعند هذا الحد يكون قد تلاشى الإحساس بالمسكن على أنه موضع الاستقرار الذي قد ينازع المسلم في تجرده وكفاحه.

ثم نأتي إلى أهم أسباب حماية البيت وأسباب الحماية من خطر البيت معاً، وهي تحقيق العبودية لله في حياة الزوجين ..

حيث يجب أن يملأ معني العبودية لله طبيعة العلاقة بين الزوج والزوجة، ومن هذا التفسير قوله تعالي: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾ (التوبة: ٧١) . حيث جاء في تفسيرها قول الرسول ﷺ: (رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى أيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلَّت وأيقظت زوجها، فإن أبي نضحت في وجهه الماء) .

وكذلك قوله – تعالي –: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ﴾ (الأحزاب: ٣٥) . ورد في تفسيرها قول الرسول ﷺ: «إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصلَّيا ركعتين كُتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات».

ولعلنا نلاحظ في بقية الآية: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (التوبة: ٧١) أن الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي المقتضي الآخر للولاية بعد العبودية، وهو قوله تعالي: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (آل عمران: ١١٠) .

غير أن هناك أسلوبا نهائياً يحقق التجرد المطلق للمسلم من دنياه، وهو أن يدخل البيت ذاته مجال الكفاح المسلح مباشرة، وتأخذ الأسرة مقعدها للقتال،

وهذا ما كان يفعله الرسول ﷺ وصحابته عندما كانوا يأخذون زوجاتهم معهم في غزواتهم المتتالية، فما تكاد تنتهي غزوة حتى تبدأ الأخرى .

ويصور لنا القرآن الكريم مدى قرب البيت من ميدان الكفاح المسلح، فيقول -سبحانه وتعالى-:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٢١) .

فنرى رسول الله ﷺ يغدو من أهله فيبوئ المؤمنين مقاعد القتال، فنشعر بمدى قرب البيت والأهل من الميدان ومواقع القتال.

وقبل الختام نبدأ زيارة بيت الدعوة :

هناك ... في واقع الدعوة وتحت ظلال السيوف .. بين بيوت البركة ومنازل الملائكة في سبيل الله .. بيت لامرأة من أصحاب اليمين هي الرميصاء امرأة أبي طلحة . وكنيتها «أم سليم» .

عن جابر – رضي الله عنه – قال: قال الرسول ﷺ: (رأيتني دخلت الجنة ، فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة) (١).

فمن البداية طلبها أبو طلحة ليتزوجها – وهو مشرك – فاشترطت عليه الإسلام ويكون صداقها إسلامه فأسلم وتزوجته (٢) . وبذلك يتكون بيت بالإسلام والدعوة.

ويجيء ضيف إلى الرسول ﷺ ولم يكن في بيته طعام، فسأل مَن يستضيف ضيف رسول الله؟، فقال أبو طلحة: أنا يا رسول الله !، فذهب بالضيف إلى بيته، وسأل زوجته أم سليم عن الطعام، فقالت: لا يوجد غير طعام الأولاد !، فوضعته أمام الضيف بعد أن جعلتهم ينامون، وتصنّعوا أنهم يأكلون دون أن يشعر الضيف، حتى أكل طعام الأولاد وشبع . فذهب أبو طلحة إلى صلاة الصبح، فاستقبله رسول الله ﷺ فقال له: (يا أبا طلحة ! لقد ضحك الله من صنيعكما الليلة) (٣).

وأطعمت الرميصاء ضيف رسول الله ﷺ طعام الأولاد، وأطعمتنا نحن معنى إطعام الضيف ..

ففي المعنى: زاد للتقوى وطعم الإيمان وحلاوة اليقين ورائحة الجنة.

ويبارك الله تعالى كرم الرميصاء، فيطعم بطعامها جميع صحابة الرسول ﷺ إذ صنعت الرميصاء طعاماً لرسول الله ﷺ وبعث ابنها أنس بن مالك يدعو

(١) متفق عليه: البخاري في (التعبير) (١٢/٤١٥) ومسلم رقم (٢٣٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) سبق تخريجه .
(٣) البخاري في (العقيقة)(٩/٥٨٧) ومسلم رقم (٢١٤٤) عن أنس .

الرسول ﷺ إلى الطعام، فقال النبي للصحابة: لقد صنع لكم أبو طلحة طعاماً، وذهب جميع الصحابة إلى بيت الرميصاء، فقال أبو طلحة: ماذا نصنع؟، فقالت الرميصاء: رسول الله أعلم بما يفعل، فأمر الرسول ﷺ الصحابة أن يدخل عشرة عشرة حتى أكلوا جميعاً وشبعوا، ولم ينقص من طعام الرميصاء شيء [(١)].

كما يأتي رسول الله ﷺ ليصلي في بيتها فلا يجد إلا حصيراً قديماً بلي، فيقول الراوي: (صلى بنا رسول الله ﷺ في بيت أم سليم على حصير قديم قد تغير من القدم، قال ونضحته بشيء من ماء فسجد عليه). رواه أحمد والنسائي وأبو داود.

وتقاتل الرميصاء بنفسها.. عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أنه قال: لما كان يوم أُحُد انهزم الناس عن النبي ﷺ ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشمرتان أرى خدم سوقهما ينقلان القرب على متونهما ويفرغانها في أفواه القوم) [(٢)].

وفي غزوة حنين: (عن أنس قال: اتخذت أم سليم خنجراً أيام حنين فرآها النبي ذات يوم والخنجر معها فقال: ما هذا يا أم سليم؟ فقالت: اتخذته حتى إذا دنا مني أحد من المشركين بقرت بطنه، فجعل رسول الله ﷺ يضحك، فقالت: يا رسول الله!، اقتُل من بعْدَنا من الطلقاء الذين انهزموا بك، فقال لها: أمَّ سليم! .. إن الله قد كفى وأحسن) [(٣)].

ولنا أن نعلم عظمة موقف الرميصاء إذا علمنا أن الذي بقي مع رسول الله ﷺ كما ذكر صاحب فتح الباري[(٤)] - في غزوة حنين نحو المائة وبضعة وثلاثين من المهاجرين والبقية من الأنصار، ومن النساء أم سليم وأم حارثة.

---

(١) متفق عليه: البخاري في (الأطعمة) (٩/٥٧٤) ومسلم رقم (٢٠٤٠) من حديث أنس.
(٢) البخاري في المناقب والمغازي (٧/١٢٨،٣٦١) ومسلم رقم (١٨١١) عن أنس رضي الله عنه.
(٣) انفرد به مسلم فرواه في الجهاد رقم (١٨٠٩) من حديث أنس.
(٤) كتاب المغازي ص٨ ص: ٢٨.

ويروي لنا أنس حادثة وفاة الغلام في بيت الرميصاء:

(عن أنس قال: مات ابن لأبي طلحة من أم سليم، فقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه، قال: فجاء فقربت إليه عشاءً فأكل وشرب، قال: ثم تصنَّعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك، فوقع بها، فلما رأت أنه قد شبع، وأصاب منها، قال: يا أبا طلحة ! أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم ؟، قال: لا . قالت: فاحتسب بما كان ابنك، قال: فغضب، وقال: تركتني حتى تلطخت، ثم أخبرتني بابني، فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان ..

فقال رسول الله ﷺ: بارك الله لكما في غابر ليلتكما، قال: فحملت وأنجبت بعد ذلك عشرة أولاد، كلهم يقرؤون القرآن) (١).

ومع العشرة أولاد الذين يقرؤون القرآن، كان أنس بن مالك الذي وهبته أم سليم لخدمة النبي ﷺ ..

ذلك الغلام الذي لم يبلغ الحُلُم، وطلب من رسول الله ﷺ أن يأذن له بالخروج في الغزوات، ولكن رسول الله ﷺ لا يجيزه للقتال، ويبكي لحبه للجهاد، كان هو الراوي الذي رُوِيت عنه أكثر أحاديث الجهاد، كما روى ألفين ومائتين وستة وثمانين حديثاً.

ومع العشرة أولاد الذين يقرؤون القرآن، كان البراء بن مالك الذي انتصر المسلمون بدعوته في إحدى الغزوات، حيث كان النبي ﷺ ومعه الجيش بالسيوف مرفوعة والقوة معدة والأسباب مأخوذ بها وما وبين هذا والنصر إلا دعوة البراء، إذ قال له الرسول ﷺ: (إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرَّه، ادعُ الله يا براء ينصرنا عليهم) (٢).

---

(١) تقدم قريباً تخريجه .
(٢) تقدم تخريجه وبيان ما فيه .

وكانت تلك بعض معالم البيت ..

امرأة من أهل الجنة جعلت الإسلام صداق زواجها ..

وأطعمت الصحابة من طعامها.. وأضحكت الله بكرمها..

وقاتلت في سبيل الله بنفسها ..

وأنجبت عشرة أولاد كلهم يقرؤون القرآن..

غير الذي انتصرت الجيوش بدعوته ..

وأنس راوي أحاديث الجهاد عن النبي ﷺ وخادمه ..

كما روت عن النبي ﷺ أربعة عشر حديثاً، وأخرج لها منها في الصحيحين أربعة أحاديث، أحدهما متفق عليه، وانفرد البخاري بحديث ومسلم بحديث، وروى عنها أنس بن مالك وعبد الله بن عباس وعمر بن عاصم الأنصاري وأبو سلمة وعبد الرحمن بن عوف وزيد بن ثابت.

وقد كانت الصفة الأساسية لتصرفات الرميصاء: هي السهولة في تصور الأحداث والممارسة المعيشية والحياة كلها ..

فعندما أرادت الزواج قالت لابنها: (قم فزوج أمك) ..

وعندما مات ابنها قالت لزوجها: (هدأت نفسه) ..

وكانت وليمتها التي أعدتها لزواج رسول الله ﷺ بقية من التمر ..

وكان طعامها لضيف رسول الله ﷺ طعام الأولاد ..

وكان فراش بيتها حصيراً قديماً نضحته بالماء، ليسجد عليه النبي ﷺ ..

وقد كانت هذه السهولة هي الأثر الاجتماعي الناشئ عن الشعور بمسئولية الدعوة في حياة أصحابها.

وهذا هو بيت الدعوة ..

الذي نسأل الله أن يكون في واقعنا .. مجتمعاً كاملاً .. وحياة دائمة.

ملحق
(شرح حديث أم زرع)

ورد هذا الحديث في البخاري في كتاب النكاح في باب حسن المعاشرة مع الأهل ومسلم والنسائي والترمذي، وقد شرح هذا الحديث علماء كثيرون منهم القاضي عِياض، وهو أجمعهم وأوسعهم.

وقد لخص الإمام العسقلاني جميع ما ذكروه في (فتح الباري شرح صحيح البخاري)، وهذا ملخصه: كانت قرية من قرى اليمن فيها إحدى عشرة امرأة، فقلن: تعالين فلنذكر بعولتنا بما فيهم ولا نكذب، فتعاهدن وتعاقدن على ذلك (وقد ذكُرن بأسمائهن في ملخص الإمام العسقلاني).

قالت الأولى: (زوجي لحم جمل غث، على رأس جبل وعث) والغث يعني الهزيل، يعني صعب المرتقى ومنه: وعثاء السفر ومعني العبارة: أن زوجها شديد، يصعب الرقي إليه (لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقى) معنى العبارة: أنه لا الجبل سهل فلا يشق ارتقاؤه لأخذ اللحم ولو كان هزيلاً، لأن الشيء المزهود فيه قد يؤخذ إذا وُجد بغير نصب ولا اللحم سمين فيتحمل المشقة في صعود الجبل لأجل تحصيله.

والمعني العام: أنها شبهت زوجها بلحم جمل غث يعني قليل الخير، وشبهت خلقه بالجبل الوعر، أي أن زوجها سيئ الخلق، يترفع ويتكبر ويسمو بنفسه فوق موضعها، فيجمع البخل وقلة الخير مع سوء الخلق والكبر.

قالت الثانية: (زوجي لا أبث خبره) يعني حديثه الذي لا خير فيه ..

(إني أخاف أن لا أذره) يعني أخاف ألا أترك من خبره شيئاً إذا بدأت الحديث عنه فلا أستطيع من كثرة مساوئه، أو أخاف إن بدأت الحديث عنه أن يصله فيطلقني وأنا أخاف الطلاق. ولكن إن تكلمت سأذكر (عجره وبجره) والعجر أصلاً العروق الظاهرة في الجسم في مواضع مختلفة، أما العجر والبجر معاً فتعني العُقد الظاهرة والخفية.

قالت الثالثة: (زوجي العشنق) والعشنق المذموم الطول من غير نفع، أو الطويل الذي يملك أمر نفسه ولا تحكم النساء فيه، بل يحكم فيهن بما شاء، فزوجته تهابه، إن تنطق بحضرته تطلق فهي تسكت على مضض (إن أنطق أطلق أو أمسك أعلق).

يعني إن نطقت يطلقها، وإن سكتت لا تُطلق، ولكن تبقى له في وضع المعلقة، وهو وضعها الدائم معه، فهي في كلتا الحالتين لا تنال حقوقها الزوجية منه، سواء طلقت أو بقيت معلقة.

قالت الرابعة: (زوجي كليل تهامة، لا حر ولا قر، ولا مخافة ولا سآمة) . تهامة بلاد حارة غالب الزمان، وليس فيها رياح باردة، فإذا كان الليل كان وهج الحر ساكناً، فيطيب الليل لأهلها بالنسبة لما كانوا فيه من أذى النهار، ومن هنا كان وصفها بليل تهامة، وأنه لا حر ولا قر، وأما قولها:(لا مخافة ولا سآمة)، فلأن تهامة جبال، يتحصن بها أهلها فلا يخافون.

فوصفت زوجها بجميل العشرة واعتدال الحال وسلامة الباطن، فكأنها قالت: لا أذى عنده ولا مكروه، وأنا آمنة معه فلا أخاف من شره، ولا ملل بيننا فيسأم أحدنا الآخر، فأنا لذيذة العيش عنده كلذة أهل تهامة بليلهم المعتدل، آمنه معه كأمان أهل تهامة بجبالهم العالية .

قالت الخامسة: (زوجي إن دخل فهد وإن خرج أسد ولا يسأل عما عهد).

لأن الفهد يوصف بالحياء وقلة الشر وكثرة النوم.

والأسد وصف بالجرأة والإقدام.

ولا يسأل عما عهد كرماً منه.

وهو في داخل بيته سريع الحركة ونشيط مثل الفهد.

وهو خارج بيته رزين ثقيل مثل الأسد.

قالت السادسة: (زوجي إذا أكل لف، وإن شرب اشتف، وإن اضطجع التف، ولا يولج الكف ليعلم البث).

(إذا أكل لف) أي خلط أصناف الطعام من نهمته وشرهه، ثم لا يبقي منه شيئاً، (وإذا شرب اشتف) أي يستقصي كل ما يشربه فلا يبقي منه شيء، (وإن اضطجع التف) فجاء الذم من جهة الانفصال عنها في النوم، وهذا ما يفسره الجزء الآتي: (ولا يولج الكف ليعلم البث): أي لا يمد يده ليعلم ما هي عليه من الحزن فيزيله.

فجمعت في وصفها بين اللؤم والبخل والنهمة والمهانة وسوء العشرة.

قالت السابعة: (زوجي غياياء أو عياياء طباقاء كل داء له داء شجك أو فلك أو جمع كلا لك)، ومعني (غياياء) مغط عليه من جهله، (والعياياء) هو مَن يعييه مباضعة النساء،

(طباقاء) الأحمق.

(كل داء له داء) . ومعناها كل عيب تفرق في الناس فهو فيه.

(شجك أو فلك أو جمع كلا لك).

إذا ضربك إما أن يشج الرأس أو يكسر العظم أو يفعل الاثنين معاً.

وبذلك تكون وصفته بالحمق والتناهي في سوء العشرة، وجمع النقائص بأن يعجز عن قضاء وطرها مع الأذى فإذا حدثته سبَّها، وإذا مازحته شجها ن وإذا أغضبته كسر عضواً من أعضائها أو جمع كل ذلك من الضرب والجرح وكسر العضو وموجع الكلام.

قالت الثامنة: (زوجي المس مس أرنب، والريح ريح زرنب) والأرنب هو الحيوان المعروف لين المس ناعم الوبر جداً والزرنب: نبت طيب الريح مثل الزعفران كنتّ بذلك عن حسن خلقه ولين عريكته بأنه طيب العرق لكثرة نظافته واستعماله الطيب تظرفاً ويحتمل أن تكون قصدها بذلك طيب حديثه أو طيب الثناء عليه لجميل عشرته لها وصبره عليها بالشجاعة، وهو كما قيل: ويغلبن الكرام ويغلبن اللئام، قال القاضي عياض: هذا من التشبيه بغير أداة، وفيه حسن المناسبة والموازنة والتسجيع. وأما قولها: وأنا أغلبه، لظن أنه جبان ضعيف، فلما قالت: (والناس يغلب)، دل على أن غلبها إياه إنما هو من كرم سجاياه، فتمت بهذه الكلمة المبالغة في حسن أوصافه.

قالت التاسعة: (زوجي رفيع العماد، طويل النجاد عظيم الرماد، قريب البيت من الناد).

وصفته بطول البيت وعلوه، فإن بيوت الأشراف كذلك يعلونها ن ويضربونها في المواضع المرتفعة ومن لازم طول البيت أن يكون متسعاً، وقيل كنتّ بذلك عن شرفه ورفعة قدره.

(طويل النجاد) هو حمالة السيف، تريد أنه طويل القامة يحتاج إلى طول نجادة وفي ضمن كلامها أنه صاحب سيف فأشارت إلى شجاعته.

وقولها (عظيم الرماد) تعني أن نار قراه للأضياف لا تُطفأ لتهتدي الضيفان إليها.

ومحصل كلامهما أنها وصفته بالسيادة والكرم وحسن الخلق وطيب المعاشرة.

قالت العاشرة: (زوجي مالك وما مالك خير من ذلك، له إبل كثيرات المبارك قليلات المسارح، إذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهن هوالك).

المبارك: موضع نزول الإبل، والمسارح: موضع رعيها.

المزهر: الذي يوقد النار فيزهرها للضيف أو آلة اللهو كالدف الذي يضرب ترحيباً وبالضيف.

مالك وما مالك؟ الاستفهام للتعظيم.

مالك خير من ذلك. زيادة في التعظيم.

له إبل كثيرات المبارك قليلات المسارح: لاستعداده للضيفان بها لا يوجه منهن إلى المسارح إلا قليلاً ويترك سائرهن بفنائه، فإن فاجأه ضيف وجد عنده ما يقريه به من لحومها وألبانها.

(إذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهن هوالك) يعني إذا سمعت الإبل صوت المزهر أيقن أن ضيفاً قد جاء وأنهن هوالك بسبب ذلك.

ومحصل كلامها أن زوجها ذو مال وكرم.

قالت الحادية عشرة: زوجي أبو زرع: فما أبو زرع؟

(أناس من حلي أذني): حرك بحلي ثقيلة أي ملأ أذنيها بما جرت عادة النساء في التحلي من فرط وشنف من ذهب ولؤلؤ.

(وملأ من شحم عضدي): أي سمنت عنده وامتلأت.

(وبجحني فبجحت إلى نفسي) فرحني وعظمني ففرحت وعظمت إلى نفسي.

(وجدني في أهل صهيل [١] وأطيط [٢]، ودانس [٣] ومنق [٤]: أي جعلني في أهل ثراء وخيل وإبل وأهل زرع ودجاج.

(فعنده أقول فلا أقبح): لكثرة إكرامه لها وتدللها عليه.

وأرقد فأتصبح: وهو نوم الصبحة إشارة غلي أن لها مَن يكفيها مؤنة بيتها ومهنة أهلها.

(١) صوت الخيل.
(٢) صوت الإبل.
(٣) الدانس هو الدارس الذي يدرس الزرع.
(٤) يزيل ما يخلط به من قشر ونحوه.

(وأشرب فأتقمح): أي حتى لا أحب الشرب من كثرة الشيء الذي يشرب.

(أم أبي زرع) والدة زوجها.

(عكومها رداح): أحمالها التي تجمع فيها الأمتعة ممتلئة ثقيلة.

(وبيتها فساح): أي فسيح .. فوصفت والدة زوجها بأنها كثيرة الآلات والأثاث واسعة البيت كثيرة المال.

(ابن أبي زرع .. فما ابن أبي زرع ؟! مضجعه كسل شطبه): ما شطب من الجريد، وهو سعفه فيشق منه قضبان رقاق ينسج منه الحصير.

(ويشبعه ذراع الجفرة): الجفرة ولد الماعز ابن أربعة أشهر، فوصفته بهيف القد ليس ببطين، قليل الأكل والشرب، أي أن معيشته سهلة عليها.

(بنت أبي زرع .. فما بنت أبي زرع ؟! طوع أبيها وطوع أمها): بارة بهما.

(وملء كسائها): للدلالة على كمال الشخصية ونعمة الجسم.

(وغيظ جارتها): أي أن جارتها تغير منها لجمالها.

(جارية أبي زرع .. فما جارية أبي زرع ؟).

(لا تبث): لا تظهر حديثنا تبثيثاً.

(ولا تنفث ميرتنا تنفيثاً): لا تسرع فيه بالخيانة ولا تنهبه بالسرقة أي الطعام.

(ولا تملأ بيتنا تعشيشاً): مُصلحة للبيت مهتمة بنظافته ولا تكتفي بضم كُناسته وتركها في جوانبه كأنها الأعشاش.

(خرج أبو زرع والأوطاب تمخض): الأوطاب جمع وطب وهو وعاء اللبن وتمخض أي يضع فيها، وأرادت أن الوقت الذي خرج فيه كان زمن الخصب وطيب الربيع، توطئة للباعث على رؤية أبي زرع للمرأة التي رآها عليها.

(فلقي امرأة لها ولدان كالفهدين).

(يلعبان من تحت خصرها برمانتين): أي من مخض اللبن تعبت فاستلقت

تستريح فرآها أبو زرع على ذلك . ورجح القاضي عياض تأويل الرمانتين بنهديها، فطلقني ونكحها.

(فنكحت بعده رجلاً سرياً): أي من سُراة الناس وهم كبراؤهم فيس حسن الصورة والهيئة.

(ركب شرياً): أي ركب فرساً عربياً أصيلاً، يستشري في سيره أي يمضي بلا خور ..

(وأخذ خطّياً): الرمح نسبة إلى مصدره وهو مكان بالبحرين اسمه (الخط) تجلب منه أفضل الرماح.

(وأراح عليّ نعماً ثرياً): أي غزا فغنم وأتي بالنعم الكثيرة.

(وأعطاني من كل رائحة زوجاً): أي أعطاني عن كل شيء يذبح زوجاً أو من كل شيء يرعى زوجاً .

وقال: (كلي أم زرع وميري أهلك): والحاصل أنها وصفته بالسؤدد في حياته والشجاعة والفضل والجود بكونه أباح لها أن تأكل ما شاءت من ماله وتهدي منه ما شاءت لأهلها مبالغة في إكرامها.

ومع ذلك قالت: (فلو جمعت كل شيء أعطانيه ما بلغ أصغر آنية أبي زرع): فكانت أحواله محتقرة بالنسبة لأبي زرع، وكان سبب ذلك أن أبا زرع كان أول أزواجها فسكنت محبته في قلبها.

(تمخض): أي يضع منها الزبد.

وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الفهرس